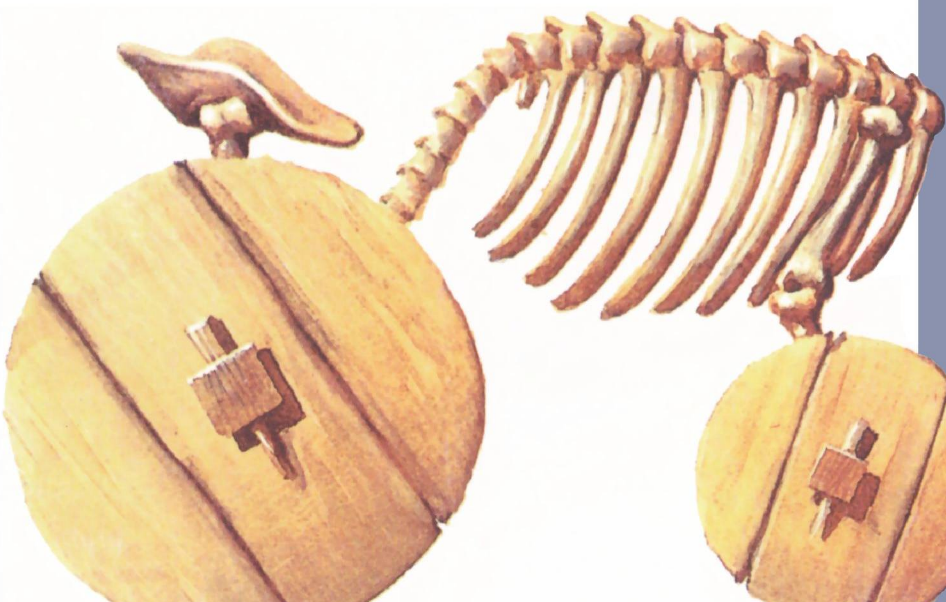
عزيز نيسين

قطع تبديل للحضارة



قصص قصيرة

الوطنية الجديدة

ترجمة: عبد الوهاب مدني

قطع تبديل للحضارة

* قطع تبديل للحضارة «قصص»
* تأليف: عزيز نيسين
* ترجمة: عبد الوهاب مدني
* الطبعة الأولى ٢٠٠٣

* **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**

سورية - دمشق - ص.ب: ٢٢٢٠٥

هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ - ٤٤١٨١٧٢

* التوزيع في جميع أنحاء العالم:

الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع

تلفاكس: ٤٤١٨٢٠٢

* العمليات الفنية:

مؤسسة سندباد للطباعة والفنون/ دمشق

* موافقة الإعلام: ٧٣٨٤٥

عزيز نيسين

قطع تبديل للحضارة

« قصص »

ترجمة: عبد الوهاب مدني

عنوان الكتاب بالتركية

AZIZ NESIN

YEDEK PARÇA

قطع تبديل للحضارة

لفت أنظار الناس الموجودين في المقهى لأنه دخله دون إلقاء السلام على أحد. رفع أحدهم نظره من خلال نافورة الماء التي كان يحدق بها وبادره قائلاً:

ـ مرحباً حميد آغا

ـ مرحباً

ـ ما قلة الأدب هذه التي تسلكها ولماذا تقف هكذا مثل الجاموس المنهك.

التفت حميد إلى الرجل العجوز الذي تلفظ بهذا الكلام وقال له:

ـ الحمد لله يا جاويش علي لقد تخلّصت من السيئات. شكراً لله.. الحياة حلوة

ـ تهانينا يا حميد آغا لعلك سددت دين البنك

ـ لا... من يفكر بقرض البنك. لقد تخلصت من هذا الجرار اللعين.

بمجرد سماع كلمة جرار. انتبه جميع العجائز الموجودين في المقهى بعد أن كانوا نصف نيام، وهم مسترخون على مقاعدهم المصنوعة من القش والتفتوا نحو حميد آغا.

ـ هل ما تقوله صحيح؟

ـ هل تخلصت منه بشكل نهائي؟

ـ أفهمنا الحكاية

ردَّ حميد آغا قائلاً:

ـ لقد تخلصت. وألف شكر لربي، الذي كرّمني برؤية هذا اليوم.

كان الفضول يسيطر على الجميع لمعرفة التفاصيل قرَّب الجميع كراسيهم من حميد آغا الذي بدأ يشرح الموضوع.

ـ بدأت الحكاية عندما أنهى ابني خدمته العسكرية. فطلب مني أن أشتري له جراراً لأنه تعلم السواقة في الجيش، وألح علي في طلبه. وتصادف الطلب مع زيارة ابنتي وصهري إلى القرية بعد أن تخرجوا كمدرسين من المعهد. حيث بدأت العطلة. فساعدوا ابني في طلبه. رفضت وقلت لهم إن ثورين يكفيان للفلاحة. اتهموني بأنني متخلف. أمسكت ابنتي بورقة التقويم وقالت انظر يا أبي نحن في العام ١٩٥٥. أي في القرن العشرين. هل فهمت؟ صهري أيضاً كان لا يتوقف عن إلقاء نصائحه قائلاً: نحن في عصر الآلة.ومن العار الفلاحة على الثيران في هذا الزمان.

ابني أيضاً كان يقوم بعملية حسابية. الحقل يلزمه عشرة عمال في اليوم. يعملون مدة شهر لإنهاء أعمال الفلاحة. بينما لو اشترينا جراراً فإنه يستطيع بمفرده ولمدة أسبوع، الانتهاء من أعمال الفلاحة. بعد ذلك سيطلب مني كل من في القرية أن أحرث لهم أراضيهم ويدفعون لي ما أرغب، ومع تقبيل يدي. وهكذا نكون قد حصلنا على قيمة الجرّار بمدة لا تزيد عن عام.. وما أن يصمت الولد. فتبدأ البنت بالكلام. تصمت البنت فيستمر الصهر. الثور أكله خسارة عندما لا يكون له عمل في الفلاحة. أما الجرّار فعندما تريد استخدامه تضع فيه مقدار ليترين من المازوت وتقوم بقيادته إلى ما شاء الله. وهو لا يأكل إذا كان لا يعمل. أما الثور فإنه يمضي فصل الشتاء بالأكل والنوم ولا يتوقف عن اجترار ما ابتلعه.

بقيت بمفردي، وكانت أقوالي تذهب هباءً. كانوا يقولون الثور يمرض الثور يهرم. الثور يموت. أما الجرّار فهو من الحديد لا يهرم ولا يتعب ولا يموت. لكن كلامهم هذا لم يكن ليقنعني. بدأت زوجتي العجوز بمساعدتهم قائلة: انظر «الجاويش موسى اشترى جرّار وحاميد آغا الأقرع اشترى أيضاً».

كان حديثنا في الصباح وفي المساء عن الجرّار فقط... زوجتي العجوز كانت أسوأ من الجميع في كلامها، فقد قالت لي أيضاً: ماذا تنتظر؟ المختار اشترى جراراً، حتى حسين حاميش اشترى أيضاً. لقد أصبحنا نخجل أمام الآغوات.

كان المستمعون الذين انتابهم الفضول يسألون كل فترة.

- إي... حمدي آغا وبعدين؟

- يعلم الله أنني كنت مصراً على عدم شراء الجرّار، إلى أن التقاني معلم القرية فبادرني قائلاً: يا حميد آغا ماذا تقول أنت؟ هل تعلم أن قوة الجرّار تعادل قوة ثمانين حصاناً. ثمانون حصاناً! هذه قوة الأولياء. معنى ذلك أن الجبال والحجارة لا تقف أمام هذا الجرّار. كان حديث المعلم قد أثر فيّ إضافة إلى الحديث الذي لا ينتهي في البيت عن شراء الجرّار فقلت لهم لنشترِ هذا اللعين ما دام فلان وفلان قد اشتروه. لنشتريه نحن أيضاً: كم ثمنه؟ البنك يعطينا قرضاً لشرائه، وهناك ثلاثة حجوم للجرّارات صغير وكبير ووسط. قلت لنأخذ جرّاراً صغير الحجم. رفض ابني هذا الكلام وقال: «أنا لا أريد من الحجم الصغير»، أما البنت فقالت مادامت النيّة انحصرت في الشراء، فاشتروا الكبير وهو الأفضل. وأضاف الصهر «اشتروا من الحجم الكبير وهذا أفضل» وانبرت زوجتي قائلة: كل الناس اشتروا من الحجم الكبير، وأنا لست بأقل منهم ولا

أريد أن أبدو صغيرة أمام الناس.

اجتمعنا، وذهبنا إلى المدينة وقصدنا شركة التجهيزات رحّب بنا رجل طيب، فبادرنا بالسؤال: ما هي مساحة حقلكم؟ فقلت له: ثمانين دونماً. فقال أنصحك أن تشتري من الحجم الصغير فهو يكفي ويزيد، ويستطيع أن يفلح أرضاً بمساحة ثمانمائة دونم بكل سهولة.

لم يعجب كلام هذا الرجل جماعتي. فقالوا لي هذا الرجل يخدعك، ونحن نصر على الحجم الكبير. يجب أن تدفعوا ٤٠٠٠ ليرة نقداً والباقي بالتقسيط، ولا مجال للجدل حول السعر. رجعنا إلى البيت. لا يمكن أن يصدقك أحد أن حميد آغا لا يملك ٤٠٠٠ ليرة. لذلك أخذت الثيران التي أملكها لأبيعها في السوق، تلك الحيوانات الحبيبة التي ولدت وترعرت على يدي. خاصة ذلك الثور الأشهب الذي كان ينظر إلي وهو يبكي ويلعق يداي. بعت الجميع بثلاثة آلاف ليرة. واقترضنا الباقي من البنك وذهبنا إلى شركة التجهيزات واشترينا ذلك الجرّار الضخم، الذي كان يتربع على الأرض كالجبل. قالوا أنه يحتاج إلى ليترين من المازوت. لكنه احتاج إلى عدة صفائح من المازوت ووضعوا زيتاً للمحرك. ركب الولد ثم تبعناه جميعاً بالركوب بعد أن علّقنا في مقدمة الجرّار حذاء قديماً، ورأساً من الثوم، وخرزة زرقاء، ولوحة كُتِب عليها «ما شاء الله». سار بنا الجرّار ووصلنا القرية مساء، وكنا في غاية السرور.

كان ممن شاهدنا في شركة التجهيزات، شخص يدعى يوسف البغّال. يملك في أسفل الجبل أرضاً مساحتها عشرة دونمات. استدان قيمة الجرّار واشتراه.

عندما يأتي المساء، كانت جميع الجرّارات تخرج إلى طريق القرية ويبدأ

السباق. وقيادة ابني للجرّار لا تُجارى، فهو يضرب ويمشي. لقد أصيب جرّار حسين حاميش إصابة قوية، فأصبح عديم الفائدة وانقلب على ظهره كالسلحفاة.

ومع حلول يوم السبت، كنا نركب جميعاً، ونذهب إلى الناحية ونوقف الجرّار أمام دار السينما كالقاطرة. وكان ابني لا يتوقف عن فتل شاربيه، وهو يقود الجرّار. وعندما نعود من السينما يبدأ السباق فلا يستطيع أحد المرور إلا بعد أن يضرب الجرّار الآخر. وهذه المرة اصطدم أحدهم بنا، وعملنا المستحيل ولم يتمكن ابني من تحريك الجرّار الذي بقي جثة هامدة على الطريق. وفي اليوم التالي ذهب إلى المدينة ولا أعرف ما الذي كُسِرَ فيه، وبحث طويلاً ولكن بدون فائدة.

ـ إ... حميد آغا وبعدين

ـ بعد ذلك استأجرنا زوجين من الثيران وسحبنا ذلك النجس اللعين إلى القرية. عدنا إلى شركة التجهيزات وقلنا لهم: أصلحوا لنا هذا الجرّار مهما كان الثمن. فقالوا ليس لدينا القطعة المطلوبة. هل يقف هذا التراكتور الضخم من أجل قطعة صغيرة؟ تسلم لي عينه ذلك الأشهب، لا يتعطل فيه قطعة أو براغي أو محرك. قال ابني سأذهب إلى استانبول لأجلب تلك القطعة وأعود.

قلت لابني اذهب وعد بسرعة.

ذهب الولد إلى استانبول. ولم يعد...

ـ إ... حميد آغا وبعدين.

ـ بعد ذلك أيها الآغوات لم نحصل على خبر من الولد، وجاء وقت الفلاحة وتبهدلنا في القرية حيث لا دراهم لدينا لنشتري ثيران. فاستأجرنا

زوجاً من الثيران وقمنا بفلاحة الأرض. بعد ذلك أرسل لنا الولد رسالة يقول فيها لقد وجدتُ القطعة يا والدي، ولكن لم يعد لدي دراهم. أرسل لي ألف ليرة بسرعة. ذهبت إلى البنك وحولت له الألف ليرة. عاد وبيده قطعة بحجم (القرش). فصحت غاضباً أهذه القطعة بألف ليرة؟ استدعينا أحد الميكانيكيين وما أن ركب القطعة حتى اشتغل الجرّار... حل الشتاء وبدأت الثلوج بالهطول، فربطت الجرّار في الإصطبل على عمود الثور الأشهب. حان موعد فائدة البنك وأقساط شركة التجهيزات ولم يكن لدينا دراهم. أصبح رأسنا مثقلاً بهموم هذا الجرّار أقساط ومصاريف دفعنا القسط الأول. جاء الصيف فقلت لابني هيا اذهب واحرث الحقل. بدأ بتشغيل الجرّار لكن صوتاً ظهر في المحرك ثم توقف الصوت نهائياً. ما مشكلة هذا اللعين. ألا يوجد من يفهم في إصلاحه. استدعينا أحدهم من شركة التجهيزات فقال: إن المسنن مكسور. فقلنا لهم أعطونا مسنّناً فقالوا: لا يوجد لدينا، وقالوا لنا: يمكنكم شراء جرّار آخر وتأخذوا مسنّنه وتضعهوه لهذا الجرّار.

انظر إلى الحقول ترى العجب. في كل حقل ترى بقايا جرّار وأينما نظرت ترى هنالك جنزيراً أو قطعة من الحديد... آه يا ثوري الأشهب آه نستعمله دوماً فلا يكل ولا يمل... لحمه يباع بالفلوس. جلده يباع بالفلوس. أما هذا النجس فهو ليس كالثور. إذا أردت تقطيعه لا يتقطع، ولا يُؤكل، ولا يُشرب.

جاء القسط الثاني فقلت للشركة سأعيد لكم هذا الجرّار، فقالوا لنا: نحن لسنا بائعي خرده. كدت أموت من الغيظ. يوجد في أضنه شخص يقوم بتصنيع القطع اللازمة، فقلت لابني «يا حمار يا ابن الحمار» اذهب وأصلح هذا النجس.

ذهب الولد إلى أضنه فقالوا له لماذا لم تجلب الجرّار معك، يجب مشاهدة المريض فقمنا بسحب الجرّار بواسطة ثورين ووصل الولد إلى أضنه بعد خمسة عشر يوماً. فقال ذلك الشخص الذي يعتبر نفسه طبيباً في الموضوع، هذا المسنن تحل مشكلته بخمسمائة ليرة.

ولكي لا يفتضح أمرنا أمام الناس، بعنا دونمين من الأرض وأرسلنا خمسمائة ليرة.

جاءت ابنتي وصهري. فقلت لهما: لقد دفعنا الشيء الفلاني دعونا نتمتع قليلاً. ركبنا جميعنا نساء وأطفالاً فقلت لابني لنبق في المؤخرة، ولا نتسابق مع أحد، فهذا النجس ليس خيل سباق. ولكن الولد لا يفهم، فبمجرد مرور جرّار حسين حاميش بجانبنا حتى بدأ بالسباق. تعطّل (المفحّم) فقلت للولد يا ابن الحمار لو كنت تقود حصاناً لتحطم فهل حسبت التراكتور كالحصان.

بدأنا بدفعه فلم يتحرك. كان كالجمل عندما يرى ماء لا يستطيع حراكاً، كيف لا تتذكر ذلك الثور الأسود. الذي ما أن تقول له (ديها) حتى يهب واقفاً بسرعة محطماً الجبل والحجر. سحبت البنت والصهر جانباً. وقلت لهما «يا أولاد القحبة» ألا تقولون لي في أي عام نحن... ألسنا في عام ١٩٥٥؟ التفتُ إلى الصهر وسألتهُ في أي قرن نحن... ألسنا في القرن العشرين؟ آه يا ثوري الأشهب ما أن تضع أمامه قليلاً من التبن فقط. تستطيع الذهاب به أينما أردت، إلى الحقل، أو البيدر، أو أي مكان آخر.

ـ إإ... حميد آغا وبعدين؟

ـ حان موعد فائدة البنك. وموعد القسط الثالث بعنا عشرة دونمات أخرى... البرغي ثمنه خمسمائة ليرة... قطعة بطول الإصبع ثمنها ألف

ليرة... الصامولة بألف ليرة... إذا انقطع الجنزير ليس هناك قطع تبديل في المحلات أو السوق، أصبح كالثوب البالي رقعة من هنا ورقعة من هناك. أينما نظرت في حقلنا تجد برغي هنا وصامولة هناك. حديد. قضبان.. جنزير.. جاء إلى الناحية نائب المنطقة ذهبت لزيارته وقلت له «ماذا سيحل بنا؟» «من أجل قطعة بحجم الطابع يرقد جرّار بحجم الفيل جثة هامدة».

ـ أفهمنا حميد آغا، ماذا قال لك.

ـ ماذا سيقول... لقد تكلم كثيراً ولم أفهم شيئاً من كلامه. لقد قال: كان الإنسان كان يعيش قديماً في العصر الحجري. والآن هو عصر الحديد. والحضارة لا تدخل البلاد إلا بالحديد. قلت له ما تقوله جيد. جلبتم الحضارة إلى البلاد، ولكن أين قطع التبديل التي تحتاجها هذه الحضارة. تعال إلى حقلنا وشاهد الحضارة، كومة من قطع التبديل، تقبع كالجثة الهامدة، ثم أضفت، أليس هناك أصغر من هذه الحضارة. هذا الشي الكريه، إذا ضربته لا يتزحزح، وإذا قلت له «داه» لا يتحرك، وإذا قلت له هست: يبقى جامداً في مكانه.

ـ إي.. حميد آغا؟ ماذا قال؟

ـ قال: بعد ذلك أيها الآغوات لقد طلبنا من أميركا جميع القطع اللازمة، وسيكون لدينا فرع هنا. انتظر قليلاً وستنزل عليك قطع التبديل كما تهطل أمطار الرحمة من السماء. قلت له نحن ننتظر نحن أما البنك فإنه لا ينتظرنا، توسط لنا لدى البنك... حان موعد الأقساط الأخرى... سأقول لكم شيئاً والله أصبحت نادماً على بيع تلك الثيران. قلبي يحترق خاصة عندما أتذكر ذلك الثور الأشهب وهو يبكي بدموع سخية عندما كنت أبيعه في السوق.

على كل ولكي لا أطيل عليكم بعت الأرض بكاملها وسددت جميع ديوني.

- وبعدين يا حميد آغا؟

- بعد ذلك، جمعت البنت والصهر والعجوز والولد، وذهبت بهم إلى الحقل، ووقفنا أمام تلك الجثة الهامدة، وقلت لهم إما أن تصلِّحوا هذه البلية أو سأضع النير في رقابكم كالثيران لتجرّوه وتفلحوا الأرض... شغَّلوا المحرك. دار بضع دورات ثم انقطع قشاط المحرك، أصلحوا السير، فسقط البرغي.. وضعوا البرغي، فانكسر المسنن... وضعوا شيئاً آخر، فانحلت الصامولة.

- وبعدين حمدي آغا؟

- وبعدين أيها الآغوات يئست من الموضوع... جمعت الولد والبنت والصهر والعجوز وقلت لهم: تعالوا يا نسل الحمير، سأريكم كيف سأصلح هذا اللعين. أخذت مهدَّه كبيرة وهجمت على تلك الجثة الهامدة. ضربت المدخنة وقلت: خذ هذا هو القرن العشرون. ضربت المحرك وقلت: هذه من أجل الحضارة. ضربت العجلات وقلت: هذا من أجل قطع التبديل. ضربت بالمهده كل شيء وإذا بالعجوز تصيح بأعلى صوتها «إلحقونا لقد جُنَّ الرجل». هربت البنت... هرب الصهر... وهرب الولد. تركت المهدَّه وخرجت إلى الطريق... وجئت إلى هنا أيها الآغوات لقد كان الدم يغلي في عروقي وكنت أتصبب عرقاً.

- فتح الجميع عيونهم وسألوه.

- إي.. حميد آغا؟ وبعدين.

- وبعدين. الدنيا حلوة أيها الآغوات... لقد تخلصت من تلك المصيبة

اللعينة... تخلصت من ذلك النجس... ألف شكر لك يا ربي... لقد وُلدت من جديد.

بعد ذلك نادى على صاحب المقهى وهو بمنتهى السرور وقال له:

ـ اعمل لي فنجان قهوة مضاعف.

○ ○ ○

تحليل الشخصية من الخط

جرت الحادثة عام ١٩٤٤. كنت في ذلك الوقت أعمل مياوماً في الجريدة، بأجر شهري قدره سبعون ليرة. ومن الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً كمراسل في التعليم والاقتصاد. بعد الظهر، كنت أعمل كمراسل في قصر العدل... وعدا ذلك، كنت ملزماً بأن أكتب يومياً بحثاً أو تحقيقاً. وفي المساء كان عليّ كتابة حكاية يومية. كما كنت أكتب يومياً فكرة جديدة. وفي الليل أستمع إلى الإذاعات وأتلقّى أخبار العاصمة أنقره بالهاتف. أما عندما يكون هناك ترجمة طلبها مني صاحب الجريدة، فكنت أقوم بذلك بعد الساعة الثانية عشر. أجمع هذه الأعمال مقابل سبعين ليرة شهرياً... سبعون ليرة وهو مبلغ لا يستطيع أحد الحصول عليه بسهولة في ذلك الزمان. وكان يُطلب من كل شخص يود العمل في الصحافة، أن يعمل شهرين كمتدرب بدون أجر ولكنهم كانوا يمددون هذه المدة إلى سنتين.

بعد انتهاء شهرين من التدريب دخلت غرفة صاحب الجريدة ووجهي أحمر من الخجل لأفهم وضعي. فقال لي:

ـ أنت أمل بالنسبة لي. وستكون صحفياً ناجحاً. سأمنحك راتباً شهرياً قدره خمسون ليرة، ولكن بشرط أن تقوم بتصميم الكلمات المتقاطعة إضافة إلى عملك.

هذه «الآن خمسون ليرة شهرياً» ومرّت خمسة أشهر. بعد خمسة

أشهر راجعته فزاد راتبي خمس ليرات. كان يزيد راتبي خمس ليرات كل ثلاثة أشهر حتى أصبح راتبي سبعين ليرة.

راجعته مرة أخرى، فانتصب واقفاً أمامي وقال لي:

ـ عن أية زيادة تتكلم! لقد عملنا منك كاتباً من الدرجة الأولى. ولزاماً عليك أن تدفع أنت لنا أجراً.

خجلت... ولكن صاحب الجريدة كان يضعني في مواقف مخجلة أكثر ثم قال لي:

ـ انظر جيداً، إذا كنت تستطيع العمل كمحلّل للشخصية من خلال الخط، فأنني سأمنحك زيادة شهرية قدرها خمس ليرات.

ـ لا يا سيدي. لا أستطيع. فهذا الموضوع لا أفهم فيه أبداً.

ـ لا إنك تستطيع أن تقوم بهذا العمل.

أصبح راتبي الشهري خمساً وسبعين ليرة على أن أقوم بتحليل شخصيات القراء من خلال الخط. قامت الصحفية بنشر الإعلان التالي في صفحتها الأولى.

«من أجل فائدة قرّائنا الأعزاء، قمنا بتضحية كبيرة. فلقد دعونا الخبير الألماني هرفان رود شميدت من ألمانيا إلى بلادنا، وهو من كبار الفلاسفة في العالم في تحليل الشخصية من خلال الخط. أرسلوا لنا أيها الأعزاء سطراً واحداً مكتوباً بخط يدكم، ليقوم الدكتور هرفون رود شميدت بتحليل شخصية صاحب الخط. وسوف يتم نشر التحليل على صفحات الجريدة». لابد أنكم عرفتم من هو أكبر فيلسوف في العالم. أنا الدكتور هرفون رود شميدت. لقد اصبحت بروفسوراً من أجل خمس ليرات في الشهر.

لم أكن أعلم أن هناك الكثير من الناس ممن يودون معرفة شخصياتهم!... كانت ترد للجريدة مئات الرسائل يومياً. فازدادت مبيعاتها. لقد علمني صاحب الجريدة مفهوم تحليل الشخصية على النحو التالي:

ـ كل شخص يظن أن لديه عادات وأشياء حسنة. اكتب عن عدم النجاح وقلة الحظ...!

بالنسبة لي كنت أقف عند المحاكمات العامة، مثلاً: كنت أكتب كنموذج «أنت سيدة مرتبه ودقيقة. ولكن في بعض الأحيان تصبحين غير ذلك، أنت تستحقين كل سعادة. روحك نظيفة. وأنت إنسانة حقاً».

كان كل ما أكتبه لا يمكن أن يسيء إلى أحد.

ولكنني لا أنسى ذلك اليوم الذي أرسل لنا فيه أحد القراء خمس صفحات كتبها بخط يده، بدلاً من السطر الواحد الذي كنا قد أعلنّا عنه. فقمت بتحليل شخصيته على الشكل التالي:

«أنت تحب الكلام كثيراً، ولكنك تعرف كيف تدعو الآخرين بلطف للاستماع إلى أحاديثك. أنت تقف عند كلمتك في عملك. ستكون ناجحاً في حياتك من خلال حديثك».

مساء ذلك اليوم ظهرت فيه هذه الكتابة في الجريدة دخل صاحب الجريدة إلى غرفتي وهو يتضايق وقال لي:

ـ ماذا كتبت أنت بحق شخص اسمه (عثمان يوزري)

ـ لا أدري... لننظر إلى الجريدة.

قرأنا الجريدة، كانت نفس الكتابة التي حدثتكم عنها. فقال لي صاحب الجريدة:

ـ لقد حضر هذا الشخص إلى الجريدة وأصر على رؤية الخبير في الخطوط.

ـ ما العمل الآن...؟

ـ لا شيء. أنت ستصبح ألمانياً... وأنا سأقوم بالترجمة...

ـ هل تتكلم الألمانية؟

ـ لا لا أعرف الفرنسية.

تراكضوا يميناً وشمالاً ووجدوا شخصاً يعرف الألمانية... جيد ولكن كيف لي أنا أن أعطي أجوبة في الألمانية.

دخل الرجل إلى الغرفة ونظر إلى صاحب الجريدة وإلى الشخص الذي سيقوم بالترجمة من الإفرنسية إلى الألمانية وسأل.

ـ من هو البروفسور يا سيدي؟

أشاروا إلي. ولكن الرجل نظر إلي في ريبة لأنني لا أشبه الألمان مطلقاً بل أشبه اليابانيين.

ـ من فضلك بلِّغ البروفسور الدكتور هرفون رودر شميدت إعجابي الشديد. فلقد أصاب وبشكل مدهش تحليل شخصيتي. فأنا محامي ولقد عرف الدكتور أنني فنان في الكلام.

قام صاحب الجريدة بترجمة هذا الكلام من اللغة التركية إلى الفرنسية. وترجم الزميل الكلام إلى الألمانية. وجاء دوري لا أعطي الإجابة بالألمانية. أنا لا أعرف كلمة واحدة في الألمانية. فقلت لنفسي لأصافح هذا المحامي بدلاً من أن أشكره. فقلت بلهجة ألمانية.

ـ ياه. شون، زرشون. وصافحته.

في هذه الأثناء دخل رئيس المنضدين واتجه رأساً إلى السؤال قائلاً:

ـ يا حسن بك، المطبعة تنتظر وأنت لم تعطنا تحليل الشخصية حتى الآن.

التفت إلى الوراء، فصرف صاحب الجريدة رئيس المنضدين. ولكن غيمة من الشكوك كانت تبدو في نظرات المحامي الذي بادر بالكلام قائلاً:

ـ لي رجاء من الدكتور المحترم. في نيتي الزواج من فتاة فهل يستطيع الدكتور أن يحلل لي شخصيتها من خلال ما كتبته لي من رسائل. وعلى ضوء ما سيقوله الدكتور سأقرر ما إذا كنت سأتزوجها أم لا.

ترجم صاحب الجريدة الكلام إلى الفرنسية وقام المترجم بترجمتها إلى الألمانية. وأسقط في يدي فنظرت في عيني صاحب الجريدة الذي أشار إلي بعينه بمعنى «قل أي شيء» بدأت برمي الكلام.

ـ «داس أينن لوغان أوبد زيهته شلاهين. مورغر دره ناه فيفوزن ماينه». نقل المترجم هذا الحديث الملفق إلى الفرنسية ونقل صاحب الجريدة الكلام إلى التركية على الشكل التالي:

ـ البروفسور المحترم يقول «طبعاً نستطيع القيام بتحليل الشخصية حالاً».

هذه المرة انبرى المحامي قائلاً: أنا أفهم قليلاً الألمانية ولكنني لم أفهم شيئاً مما قاله البروفسور. فرد صاحب الجريدة قائلاً:

ـ البروفسور من سكان شمال غرب ألمانيا فحتى الألمان لا يفهمون لهجته إلا بصعوبة.

في ذلك اليوم جرى كل شيء معاكساً. فقد دخل القهوجي وسألني قائلاً:

ـ حسن بك هل الشاي لك.

أخذ صاحب الجريدة الشاي وخرج القهوجي. ولكن المحامي أصبح مليئاً بالشك والظنون. في هذه الأثناء انفجر الوضع تماماً عندما دخل بقال الحارة الذي كان يمر عدة مرات يومياً وكنت أتهرب منه وبدأ يصيح بأعلى صوته وسط هذا الجمع قائلاً:

ـ شكراً يا حسن بك لأننا التقينا. والله عيب، فأنا أمر عليك في اليوم عشر مرات وأنت تقول اليوم، غداً... لماذا تكذب علي؟ هل ارتكبنا خطأ عندما بعناك بالدين؟

فقال صاحب الجريدة للبقال:

ـ ماذا تريد أيها السيد هذا الرجل لا يفهم اللغة التركية.

ـ ماذا تقول؟ لا يفهم التركية؟ الله الله يتكلمها كالبلبل عندما يشتري الفاصوليا والبصل. هل انعقد لسانه عندما رآني. والتفت إلي قائلاً:

ـ انظر يا حسن بك أنا لا أفهم الكلام أريد فلوسي.

فأجبته

ـ إه بن كاينه. آه ذا يتونع ذين.

نظر البقال في وجهي وهو مندهش وقال لي:

ـ لقد جننت أنت.

ـ لي فول اشو كان بين زولا مي هان.

لم يعد المترجم يستطيع الاحتمال فانفجر ضاحكاً. أما المحامي فقد بدت على وجهه الدهشة، وهو ينظر إلي وإلى صاحب الجريدة والبقال.

التفت صاحب الجريدة إلى البقال وقال له:

ـ يا أخي أنت تشبِّه هذا الشخص... هذا الرجل بروفسور ألماني.

ـ بروفسور ألماني. معنى ذلك أن هذا الرجل بدأ بالنصب والاحتيال.

لقد خدعكم يا سيدي بادعائه بأنه بروفسور ألماني. انظر إلى سحنته؟ هل رأيت في حياتك رجلاً ألمانياً بهيئة شخص ياباني.

كنت متجهم الوجه وكأنني لا أدري ما يدور حولي فبدأت بالسؤال.

ـ ذي كونير. قماردين شيفتانغير زوهنه.

ـ أبعد المحامي المترجم والتفت إلي قائلاً:

ـ لماذا احمرَّ وجهك.

في هذه اللحظة نسيت أنني بروفسور ألماني فقلت له:

ـ لا أدري.

فالتف إلي المحامي وقال:

ـ تفوه... وخرج.

كذلك تفل البقال كالمحامي وخرج. بقيت أنا وصاحب الجريدة. أخرجت المنديل من جيبي وبدأت أمسح وجهي وعيني. فقال لي صاحب الجريدة:

ـ يا حيف عليك. لم تنجح في العمل الذي كلفتك به وتبدّلت ملامح وجهك وعينيك. سأقوم بحسم عشر ليرات من راتبك الشهري... تفوه عليك... وخرج أيضاً.

○ ○ ○

حكاية غرامية

أنا أعرف كل شيء، لأنكم بمجرد قراءة العنوان ستندفعون بشدة وفضول لقراءة القصة، وسوف تظنون أن الموضوع يتعلق بكيفية مراقبة إحدى الجارات وهي تبدل ملابسها الداخلية في غرفة نومها. لكن الموضوع ليس كما تظنون. ففي شهر أيار دخل عليّ سكرتير المجلة التي أعمل بها وقال لي:

ـ بمناسبة قدوم الصيف، اكتب لنا قصة غرامية.

لم أبدِ أية دهشة تجاه هذا الطلب وقلت له:

ـ على راسي!

ـ هل كتبت القصة الغرامية؟

ـ فأجبته ها... لقد نسيت. سأكتبها الأسبوع القادم.

أمضيت شهر أيار، وأنا أتناسى الموضوع إلى أن حل شهر حزيران، فدخل علي السكرتير عابساً وسألني:

ـ يا هو... أين القصة الغرامية التي كنت ستكتبها.

ـ سأكتبها، الأمر سهل يا عزيزي.

ولكي لا يفهموا أنني لا أعرف كتابة «قصة غرامية» قلت أن الأمر سهل ولكنه بالنسبة لي ليس سهلاً أبداً... في منتصف حزيران دخل علي السكرتير وهو غاضب وقال لي:

ـ مضى الصيف وأنت حتى الآن لم تكتب القصة الغرامية.

ـ لا تتضايق يا عزيزي سأكتبها... ما زال أمامنا أربعة أشهر من الصيف!

أثناء الحديث عن القصص الغرامية كنت دائماً أقف ضد هذه الحكايات، ودائماً أعترض قائلاً:

ـ كتابة القصص الغرامية لا تحتاج إلى معرفة... يستطيع الإنسان إذا أراد، أن يلفق عشرات القصص من هذا النوع. القصة الغرامية لا تشبه القصص الساخرة، فالقصص الساخرة. تبحث في مواضيع اجتماعية.

كنت أتكلم بهذه الطريقة كي لا أقول لهم أنتم جهله. وكانوا يقولون لي:

ـ صحيح... إن ما تقوله صحيح ولكن لابد من كتابة القصة الغرامية بين الحين والآخر.

ـ ما دمتم تصرون فالجو بالنسبة لي مناسب، سأكتب قصة غرامية.

لو كان الأمر يتعلق بالقصص الساخرة لكنت أقمت المحاضرات وعقدت الاجتماعات. لكن عندما حل تموز بحرارته الملتهبة دخل علي السكرتير وقال لي: وكأن مساً من الجنون قد أصابه.

ـ انظر إلي إذا كنت ستكتب القصة الغرامية اكتبها، وإلا فسأكلف أحداً سواك بكتابتها.

ماذا!!. سيكلف غيري بكتابتها؟.. لا لا يمكن... صحيح أنه سيدفع لي خمس ليرات أو عشر ليرات على أحسن تقدير، لكن الموضوع لا يتعلق بالدراهم بل لأنهم سيقولون، دعك من هذا الكاتب الساخر الذي لا يستطيع كتابة قصة غرامية...!

سيحجم الجميع عن تكليفي بكتابة قصة ساخرة مهما كنت ماهراً في

هذه المواضيع، وسيذهب كلامي هباء حتى لو كنت أفصح الناس. لذلك قررت أن أكتب قصة غرامية من أجل إنقاذ شرفي، ومن أجل معيشتي أيضاً... ولكن الموضوع لا ينتهي بإعطاء قرار. لو كان الأمر كذلك لهان الموضوع... فأنا أستطيع الكتابة في كل الظروف، في الضجيج، والضوضاء حتى ولو كانت القيامة تقوم. أما القصة الغرامية فلا تكتب في مثل هذه الظروف. لذلك أبعدت جميع من في المنزل، وبقيت بمفردي أتنقّل من غرفة إلى غرفة حتى الحمام والتواليت دخلتهما عدة مرات...

ـ قصة غرامية، قصة غرامية... يجب أولاً إيجاد الموضوع، يجب أن يكون هناك سيدة، لا ليست سيدة بل امرأة... امرأة كالفستق... أو يجب أن يكون هناك فتاة دافئة... يعني علي أن أذهب إلى الشاطئ أليس كذلك؟

بقيت يومين وأنا أفكر بموضوع القصة... كم هي صعبة هذه اللعينة!

وفي اليوم الثالث، شمرّت عن ساعدي.. كتبت وشطبت. ومزقت وكتبت أيضاً. ولكنني نجحت في تلفيق قصة غرامية قوية.

قال لي السكرتير وقد بدا عليه الامتنان.

ـ اقرأ لنا هذه القصة.

بدأت القراءة.

«كنت أجلس في الدرجة الممتازة في الباخرة التي تُبحر إلى قاضي كوي. علماً بأنني أركب في أرخص درجة، ولكن سبب ركوبي الدرجة الممتازة في ذلك اليوم هو تلك الفتاة الشقراء التي شاهدتها في رصيف الميناء».

ـ جميل!

ـ «كان الرصيف مزدحماً، ولكي أستفيد من هذا الزحام، تسللت ووقفت خلف تلك الشقراء ووضعتها تحت حمايتي من أولئك الكلاب السفلة».

ـ سلمت يداك... كتابتك جميلة.. أكمل.

ـ «كان الرصيف مزدحماً جداً. وبدأ الدفع من الخلف... أمان كم كان تدافعهم لذيذاً».

ـ جميل جداً!

ـ «فتحت أبواب الباخرة. وعندما دخلت القنبلة الشقراء إلى الدرجة الممتازة، وجدت لزاماً علي أن أتبعها. جَلَسَتْ على المقعد الوثير... واسترخت... عند ذلك لم أعد أقوى على الاحتمال. عضضت على شفتي بأسناني، وتمسكت بدرابزين الباخرة الحديدي وتمالكت نفسي بصعوبة».

ـ ممتاز...

ـ سألتها هل تذهبين معي إلى الشاطئ؟ فأجابتني بدلعٍ: اذهب معك إذا تفاهمنا.

ـ أمان ممتاز!

ـ بعدها بدأ الجدال. طلبت خمسين ليرة. فقلت لها هذا مبلغ كثير. فقالت ليس كبيراً أبداً. المعيشة غالية جداً... قلم الحمرة بست عشرة ليرة حتى أنك لا تجد البندورة... ولا القهوة... أو الشاي أو السكر.

انفجر السكرتير كالقنبلة وقال:

ـ ما هذه القصة الغرامية. لقد شوهتها فجأة... غير مقبولة... بعد جدال وصراخ قال لي السكرتير بصوت وقور:

ـ السخرية بهذا الشكل غير مقبولة. لأن الناس أصلاً ملّوا هموم الحياة وغلاء المعيشة، في الوقت الذي يحتم علينا تسليتهم وإضحاكهم وعندما دخلت قصتك مرحلة المتعة بدأت بالكلام عن البندورة..

ذهبت إلى البيت وأنا أشعر بضيق شديد، فقد قررت أن لا أختار في قصتي فتيات محرومات. بل سأختار سيدة غنية.. سيدة مجتمع.. طالما أن الموضوع عبارة عن قصة. فسأختار السيدة على مزاجي.

ـ كتبت قصة غرامية رائعة.

جاءني السكرتير وقال لي:

ـ اقرأ.

بدأت بالقراءة.

ـ «كانت الموسيقى الهادئة تنبعث من الصالون. وكنت مع سهيلة في الشرفة، أسندت رأسها إلى كتفي فجذبتها إلى صدري». جميل جداً.

ـ قالت سهيلة: أرجوك قد يراني زوجي..

فسألتها لماذا تزوجت من هذا الرجل المفقوع.

ـ قالت سهيلة: آه لا تسألني، لو لم أتزوجه كنت سأتحمل كثيراً من المشاكل.

الحياة صعبة في هذا الزمان. كنت أدفع ألف ليرة شهرياً أجار بيت بغرفتين. بالإضافة إلى اللباس والمعيشة. إذا أردت أن تعمل بشرف. مثلاً ضارباً على الآلة الكاتبة. لا يدفعون لك أكثر من ألف ليرة شهرياً أما إذا اشتغلت بطرق ملتوية فتكسب الكثير.

بدأت سهيلة تبكي وهي تقول: لقد كنت مُرغمة على الزواج من هذا المفقوع.

قاطعني السكرتير قائلاً:

ـ غير مقبول... ألا تفهم كلامي... خذ الموضوع من جانبه الحلو... كنت سأفقد عملي وعيشي بسبب هذه القصة الغرامية. لزمت البيت طوال الأسبوع وقررت أن أكتب قصة تعجب السكرتير... كتبتها وذهبت إلى السكرتير لأقرأها له.

ـ كنت اختلس النظر من شق باب الغرفة الخشبي على الشاطئ. كانت الفتاة الشابة عارية. خلع الشاب ثيابه أيضاً. بعدها جاء شاب إلى شق الباب وقال لي: «انتهى وقتك يا صديقي، كل خمس دقائق بليرتين ونصف إذا كان الأمر هكذا بالدراهم... اخرج أنت، وأنا أدخل مكانك وتفرج أنت علينا. دفع لي الرجل ليرتين ونصف. دخلت أنا الكابين وبدأ يتفرج علينا من شق الباب.

ـ عظيم جداً. وماذا عملت بعد ذلك.

ـ قلت له إنك تنوي أن تدفع لي خمسين ليرة لأجل القصة أليس كذلك؟.

ادفع لي خمساً وعشرين ليرة فقط وانشر هذا القسم في مجلتك...

لقد بدأت الفتاة بالبكاء وهي تقول لي. «رغم أنني أقوم بكل هذا العمل، إلا أنني لا أستطيع تأمين لوازم الحياة. لا أجد الدواء الذي كتبه الدكتور لابني المريض في الصيدليات... والله الذنب ليس ذنبي... لقد قلت لها كفي عن هذا الكلام أيتها الفتاة لقد بهدَلْتِ لنا القصة وسيغضب السكرتير كثيراً.

فقالت لي: «لا تتدخل في شؤوني سأبكي».

○ ○ ○

هذا العصر

بعد أن تجاوزت الأربعين من العمر، ولم أتزوج ولا أرغب في الزواج مرة ثانية بعد ذلك. يقولون: «أن الرجل بلا أولاد كشجرة بلا ثمر» فأنا لست أعتبر بلا ثمر، فلي أولاد اخوتي وأنا أمنحهم كل حبي.

أخي الكبير موظف بسيط دخله محدود، وميزانيته لا تكفي للقيام بالنزهات أو السهرات، فهم لا يذهبون حتى إلى البحر أو السينما. ولقد وجدوا أن أرخص تسلية لهم هي إنجاب ولد كل سنة.

أما أخي الصغير فدخله ضعيف أيضاً. ترك المدرسة وهو في الثاني الإعدادي، متزوج منذ خمسة عشر عاماً وله ولدان.

لي أخ أصغر مني أيضاً. ولأن قدرته محدودة، فقد أنهى الدراسة الابتدائية بصعوبة ولهذا أصبح غنياً. لا يدع وزوجته فرصة فرح أو تسلية تفوتهم. التسلية والنزهات قبل كل شيء لقد كنت أحتار كيف يجدون الوقت للإنجاب.

أربعة اخوة لا يحب أحدنا الآخر. والسبب لأن أخي الكبير قد حول امرأته إلى مصنع لإنجاب الأطفال. متبعاً بذلك قول أحد المشايخ «مادمت لست مسؤولاً عن رزقهم انجب ما شاء لك». ويدعي أيضاً «أنه ينجب أولاداً من أجل الوطن».

أما أنا فيقول عني اخوتي أنني «شجرة بدون ثمار»... ولكنني كنت مسؤولاً عن ثمارهم... التي أصابها الدود. أو المرض... أحب أولاد أخي كثيراً. وهم يحبونني أيضاً. البارحة كان جميع الأولاد

بضيافتي ثمانية أطفال، أكبرهم عمره اثنا عشر عاماً وأصغرهم ثلاث سنوات.

ألتان، عمره تسع سنوات قام ببعثرة جميع كتبي ثم بادرني قائلاً:

ـ لقد ملأت الرفوف بالكتب! ولكنني لم أعثر في مكتبتك على كتاب يُقرأ يا عمي.

عدَدت له أسماء بعض الكتب التي رأيتها مناسبة له:

ـ يوجد كتاب (روبنسون كرروزو) قصة جول فرن وبعض القصص المشوقة... ضحك جميع الأطفال من كلامي، أما ألتان فقال لي:

ـ دع عنك هذا يا عمي. هل لديك كتب مايك هامر؟ كتب انتقام، دماء، دروس في العشق، موسوعة عن الجنس.

لم يكن لدي أي كتاب من الكتب التي سألني عنها. كانت بتّوش البنت ذات الأحد عشر ربيعاً هذه الفتاة الجنية لا تتوقف عن سؤالي وهي تريد أن تتعلم كل شيء.

صحيح أنني لم أصبح أباً، ولكنني أعرف كيف يجب تربية الأولاد. كانت الكتب التي قرأتها عن تربية الأطفال تُجمع على أن الأطفال لكي تنمو علاقتهم بالعالم الخارجي، يطرحون الأسئلة بكثرة على الكبار. لذا يتعين الإجابة على جميع أسئلتهم.

كنت أجيب على أسئلة أولاد أخي كأن أمامي أشخاصاً كباراً وأحاول جهدي أن أشرح لهم كل شيء. أشارت لي الجنية فاتوش إلى مكان في الجريدة وسألتني.

ـ الجريدة تكتب «التلقيح الصناعي» ما معنى هذا يا عمي؟

تسمَّرت في مكاني وأنا ألتفت يميناً وشمالاً، كان لزاماً علي أن أفهم الأولاد ما هو «التلقيح الصناعي» فقلت:

ـ إنه شيء... ألا تعرفون الأطفال؟.

تحلّق الجميع من حولي، وبدأوا ينظرون إلى فمي ما عساي أن أتكلم.

ـ إ إ إ

ـ إذا أرادت الأم بمفردها أن يكون لها ولدٌ... ولم يكن هناك أبٌ لهذا الولد عندئذ...

بدأ العرق يتصبب مني... وكم كان جميلاً من (إرول) لو قاطعني بتغيير الحديث. وأنقذني من هذا المأزق. ولكنه سألني:

ـ يا عمي ما معنى ما تكتبه الصحف دوماً (قبض عليهم وهم في وضع غير لائق).

لا أدري كيف سيجيب الكُتَّاب الذين يكتبون عن تربية الأطفال على مثل هذا السؤال. ولكنهم يقولون «يجب إعطاء الجواب الصادق حسب عمر الطفل».

ـ الوضع غير اللائق... يعني.

شدَّ الأطفال إلى الحديث. وكلهم آذان صاغية... لا ... ليس إلى هذا الحد فليعذرني مربي الأطفال. فكل شيء له وقعه وباعتقادي أن هؤلاء الأطفال لم يبلغوا العمر الذي أستطيع أن أكشف لهم «الوضع غير اللائق» لذلك، تابعت حديثي مع الأطفال قائلاً:

ـ الوضع غير اللائق أيها الأطفال هو من يزعج الآخرين. كالضجيج مثلاً.

هذه المرة سألني (يلماز):

- انظر يا عمي إلى الجريدة مكتوب فيها «لقد اغتصب فتاة» ما معنى هذا الكلام.

قلت لهم:

- دعونا من هذا الكلام، هيا نقوم بنزهة.

- تجمعوا حولي وبدأوا بصوت واحد أفهمنا... أفهمنا.

- إذا أضاعت الفتاة شيئاً ثميناً...

صاحت (يلدز):

- آ آ البارحة...

ولكي لا تكمل كلامها صحت بها قائلاً:

- اسكتي يا قليلة الأدب.

بدوره بادرني (أيدن) بسؤال:

- من أين يأتي الطفل؟

أردت تغيير الحديث، ولكن (ألتان) أجاب على هذا السؤال كالتالي.

- يأخذونه من الشارع أليس كذلك.

- بعضهم يأخذونه من الشارع... ولكن ليس كل الأطفال.

فسألني (يلدز):

- تجلبه الملائكة من السماء أليس كذلك؟

بدأ الجميع يقهقهون ضاحكين إلى أن قطع ابن أخي الذي عمره تسع سنوات ضحكهم قائلاً لي:

- ولك يا عمي الحمد لله أنك غير متزوج.

احمر وجهي من الخجل وسألته:

ـ لماذا...

ـ لماذا؟ لأنك حتى الآن لا تعرف من أين يأتي الطفل... ولا تعلم ما هو الوضع غير لائق... أنت لا تعرف شيئاً أبداً... ولا تقرأ ما تكتبه الصحف، وأيضاً لقد كبرت.

كان الأطفال قد استلقوا على ظهورهم من الضحك... وخرجت من الغرفة خجلاً.

○ ○ ○

خَاطِرة مدرسية

أصبحت الآن رجلاً جدياً عابس الوجه. عديم الذوق أيضاً. بينما كنت في شبابي أحب المزاح وكان كل من صادفته يقهقه عالياً خلال حديثي معه. أما الآن فحتى أطفالي باتوا يسخرون مني.

لو كانت اللغة التركية التي يتكلمها المداحون بلهجات مختلفة مستمرة حتى الآن لكنت من المؤكد قد أصبحت مداحاً معروفاً.

كنت في حوالي العشرين من عمري. وكنت في مدرسة صارمة تفرض النظام والتربية القاسية على طلابها.. ولكنني كنت مصراً على أن أصبح رساماً. لأنني لم أفلح بأن أكون كما أردت ولا كما أرادت تلك المدرسة.

رأيت أن أسهل شيء هو أن أنتسب إلى كلية الفنون الجميلة.. كنت أهرب كل يوم من مدرستي الليلية. لأذهب إلى الكلية ولأن المدرسة لها لباس رسمي كنت أهرب منها وأنا بلباسي المدني.

كان في المدرسة موجهٌ اسمه محمد بك. كالشُم إذا صادفته فسيركبك النحس سنة على الأقل.

في صباح أحد الأيام وأنا ذاهب إلى الكلية وعند باب المدرسة التقيت مع محمد بك لم يعد بوسعي ان أرجع أو أهرب. تماسكت جيداً فسألني محمد بك بغضب:

- إلى أين..؟

وبسرعة أجبته آزره.

- هل تسألني أنا؟.

وبوجه عابس وحاجبين مقطبين وبصوت عال أجابني:

- طبعاً أسألك أنت.

- لماذا تسألني.. إنني ذاهب إلى المقهى.

- أليس اسمك حسن.

- كلا.. يقولون أن أسمي (ألِك برجفَّار)

تخلصت من هذه الأزمة.. ولكن الأزمات كانت متلاحقة دائماً.. ففي أحد الأيام صادفت محمد بك أيضاً ولكن في الشارع أمسكني من يدي كي لا أهرب وأنا مسكته من يده أيضاً كأنني أصافحه تعجب من عدم التكليف الذي أبديته وقال لي:

- لماذا لم ندخل إلى الدرس؟

فأجبته بلهجة أرمنية:

- عن أي درس تسأل؟

- ألست أنت حسن.

- لا بد أنك على خطأ.

- أي.. أنت جفَّار أليس كذلك؟

- لعلكم تشبهونني لأحدهم.. يخلق من الشبه أربعين..

تخلصت من هذه الورطة أيضاً. ولكنني كنت على يقين بأن محمد بك قد شك في أمري وأنه لابد وأن يبحث عني عندما يعود إلى المدرسة.. تصرفت بسرعة وأخذت تاكسي وعدت إلى المدرسة. بعد قليل أرسل محمد بك في طلبي. كان يتفحصني جيداً وهو يكلمني ثم سألني:

ـ من أي مدينة أنت؟

ـ قلت أنا من استانبول.

لم يعلق على كلامي ولكنه منذ ذلك اليوم وضعني تحت المراقبة وكان يطلبني دائماً. ليتأكد من وجودي.

كنت على يقين بأن كذبي سيفتضح أمره في أحد الأيام. وكنت أقول دع هذه الأيام تُطول. كانت مقابلتي الثالثة مع محمد بك في ممرات المدرسة. وكنت باللباس المدني. كان واثقاً بأنني وقعت في الفخ فقال لي:

ـ إي. أنت جفَّار.. أم كريكور.. أم حسن. قل لي من أنت؟.

فكرت للحظة أن أطأطئ رأسي، وأقول له اعذرني ولكن معنى ذلك أن أُودَعَ الأكاديمية لكنني عدت وقررت أن أستمر في الهزل فأجبته بلهجة يهودية قائلاً:

ـ لم أفهم ماذا تعني أنا اسمي مردخاي. صاح في وجهي قائلاً:

ـ ولك. اليهودي ليس له عمل هنا.

كانت مستودعات المدرسة ممتلئة بالأرزاق المشتراة ديناً. وكان أكثر الأشخاص الذين يجمعون الدَّين من اليهود فأجبته:

ـ لقد اشتروا من محلنا بضاعة بالتقسيط وجئت أنا لآخذ الأقساط. فصاح غاضباً:

ـ اغرب عن وجهي..

ـ الله يطول عمرك.. قلتها وخرجت ثم عدت فدخلت من الباب الخلفي.

ومنذ ذلك الحين أصبح محمد بك يلاحقني خطوة خطوة. أما أنا فبقيت مدة لا أذهب إلى الأكاديمية.

في إحدى الليالي كنا ندرس في غرفة الصف. نهض رفيقنا (ستناحي) وخلع ثيابه والتفّ بشرشف السرير وبدأنا نمثل روميو وجوليت بشكل أوبرا.. صعد (شيناصي) على الكرسي وبيده مكنسة على أنها باقة من الزهر أما أنا فأمسكت سلة الأوراق وقلت لشيناصي بصوت أوبرالي إنني أعلن حبي لك. بدأ أشيناصي يغني بصوته الرفيع وأنا بصوتي الباريتوني.

ـ ها.. ها.. هاها.. ها.

ـ هيه.. هي.. ها.

سقط الزملاء على الأرض من شدّة الضحك: ووصلت حالتهم إلى درجة أحسست خلالها أن شيئاً غريباً قد حدث. نظرت بطرف عيني أما الزملاء فكانت عيونهم تدمع من الضحك تطلّعت إلى نجدت. كان يضحك ويشير إلى الباب. التفت صوب الباب فرأيت المدير ومعاونه محمد بك. شيناصي لم يكن يعلم شيئاً. وظن أن الزملاء مسرورون فاستمر بدور جولييت وبدأ يغني بصوته الناعم.

ـ هي هي.. هي هي.. هي هي.

كنت حائراً فلم أعد أقوى على ترك سلة الأوراق من يدي. أو أن أعطي إشارة لشيناصي لكي يتوقف كما كنت لا أستطيع الوقوف على قدمي.. حاولت لفت نظر شيناصي فأشرت بعيني إلى الباب بلهجة أوبرالي صحت قائلاً:

ـ ها.. انظر إلى الباب.. ب! ها ها... ها ها.. هي هي...

فأجابني محمد بك بصوته:

ـ أوها! أوها.. أوهاااا

تسمرنا كالتماثيل في أرضنا أنا وشيناصي.

فسأل المدير شيناصي:

- ماذا تفعلون؟

قال شيناصي والمكنسة لازالت في يده.

- ننظف العناكب الموجودة في السقف.

- وماهذا الشرشف الذي عليك؟

لكي أتجنب الغبار. والتلفت إلي قائلاً:

- وأنت ماذا تفعل؟

- أجمع الأوراق من الأرض.

وخرجا دون أن يتفوّها بكلمة. لا أعلم ماذا جرى لشيناصي ولكنني لم أنم تلك الليلة. وفي الصباح استدعيت إلى غرفة الأساتذة كان الجميع موجودين المدير ومعاون المدير محمد بك وجميع الأساتذة. سألني المدير:

- ما اسمك؟

هو يعرفني جيداً لأنني كنت رسمت له لوحة زيتية. قلت:

- حسن.

فتدخل محمد بك قائلاً:

- لا. إن اسمك جفَّار.

فقال المدير:

- ما دام اسمك جفَّار هيا تكلم مثل جفَّار.

كانت جميع الوجوه عابسة فتكلمت بلسان أزري وقلت:

- هكذا يقولون اسمي جفَّار. ويقولون حسن..

عندها انبرى محمد بك قائلاً:

ـ ولكنهم يقولون عنك أيضاً أنك كريكور تكلم بالأرمنية.

كانت اللهجة التي تصدر إلي لهجة أوامر وليس فيها أي جانب من المزاح.

تكلمت بلهجة أرمنية:

ـ هه. بعضهم يقولون عني كريكور ولكنهم يمزحون.. مخدومكم اسمه حسن.

ـ ألست أنت مردخاي؟

طأطأت رأسي. ولم يكن هناك أي علامة رضى على وجوه الحاضرين انتهرني المدير قائلاً:

ـ اخرج.!

كانوا على وشك ان يطردونا من المدرسة أنا وشيناصي لولا توسط أستاذ الجيولوجيا لدى الإدارة قائلاً إنهما مجتهدان ونجونا من الطرد.

رحم الله شيناصي لقد فقَد ساقه في الحرب الكورية وأصبح شهيداً وأنا اعتبره نصف شهيد لأنني أعطيت قلبي لأحدهم.

وهكذا يا أطفال.. إنكم تنظرون الآن إلى وجه أبيكم وتقولون عنه أنه عابس الوجه. لا تظنوا أنه رجل جدي!

○ ○ ○

امرأة في الحياة العملية

الحياة الزوجية. هي عبارة عن شركة تجارية معرضه باستمرار للضرر وعدم التوافق تماماً كالبرغي والصامولة، وتبدأ هذه الحياة بالحب وتستمر بالخلاف. وعادة فإن الجانب المريح في هذه الشركة هو الأولاد. ولكي لا تنهار هذه الشركة ولضمان استمراريتها لابد لهذا البرغي أو الصامولة من مفتاح إنكليزي وفي هذا الوضع فشركة مؤلفة من شخصين تعيش وتستمر بمساعدة صديق للعائلة مثلاً. وتصبح كالمثلث الحي، شركة مساهمة ثلاثية وهذا الأمر يتم باتفاق خاص أو اتفاق شفهي، ومن الطبيعي تبديل المفتاح الإنكليزي الذي سينضم إلى الشركة بين الحين والآخر.

ليس صحيحاً أن عمل الزوجة يدمر الحياة الزوجية. وقد أُثبت ذلك من خلال حياتي الزوجية. اضطررت إلى الزواج من امرأة عاملة تمشّياً مع الديمقراطية التي دخلت البلاد فالخُطَب أصبحت كثيرة ورنانة والانتخابات سهلة أما الحياة فقد أصبحت صعبة جداً ولا تطاق.

كانت زوجتي الحبيبة تعمل في إحدى المؤسسات. وكانت تستغل وقت فراغها أثناء العمل بمناقشة بعض الأمور مع أصدقائها أو بحياكة بعض البلوزات الصوفية لها. إنها امرأة نشيطة جداً. أما أنا فقد كنت أعمل في إحدى الصحف بدوام ليلي.

زوجتي أخذت إجازة يوم قررنا فيه الزواج. ولأنني بالأصل أعمل ليلاً فلم أنم ذلك اليوم. ذهبنا إلى دائرة الزواج وتزوجنا. وفي ذلك المساء. وبعد أن أودعت زوجتي عش زواجنا السعيد ذهبت إلى الجريدة وفي الصباح

عندما عدت إلى عش الزوجية السعيد وجدت هذه الرسالة التي علقتها زوجتي على باب غرفة النوم.

«زوجي العزيز»

«أنا ذاهبة إلى العمل. أقبلك من عينيك»

قرأت رسالة زوجتي واغرورقت عيني بدموع الفرح. ذهبت إلى النوم واستيقظت في المساء. أما زوجتي الحبيبة فلم تعد من العمل بعد. ولكي لا أتأخر عن عملي كتبت هذه الرسالة وعلقتها بنفس المكان.

«يامدللتي»

«أنا ذاهب فوراً إلى عملي كي لا أتأخر.. أقبلك من وجنتيك»

وفي اليوم التالي لم نلتق أيضاً. ولكن زوجتي استمرت بكتابة رسائلها الحلوة وبأسلوبها الجميل. كانت الرسائل قصيرة وموجزة كالأوامر الصارمة التي يصدرها الربان عند تعرض باخرته للخطر.

«روحي، أنا ذاهبة، أقبلك أقبلك آلاف المرات».

أجبتها فوراً:

«أخذت رسالتك وأشكرك جداً. أقبلك من شفتيك مع حبي».

زوجك حسن.

أصبحنا أنا وزوجتي نتبادل الحب والقبل من خلال الرسائل. وبعد ثلاثة أشهر من الزواج وجدت الرسالة التالية معلقة بنفس المكان.

«ألف شكر على الرسائل التي علقتها على الباب. أنا بخير وأتمنى أن تكون أنت بصحة جيدة. سأزف لك بشرى سارّة. قريباً سيأتي مولودنا إلى الحياة. أنا حامل ولكن لا تقلق فلقد ذهبت إلى الطبيب وبعد الفحص قال لي أنني حامل في الشهر الثامن. ولكي يكون مولودنا هذا نافعاً في

الحياة يتحتم علينا أنا وأنت أن نضع يداً بيد ونعمل أكثر من أجله. لا تهمل الرسائل أنا بانتظار رسائلك دوماً».

المخلصة بكيزة

بلا شك كنت مسروراً جداً كأي إنسان مرشح لأن يكون أباً. فكتبت لها الجواب التالي فوراً وعلقته على باب الغرفة.

«يا ملاكي»

«فرحت جداً لهذه البشارة. لقد اشتريت لك (بروش) كهدية وضعته تحت مخدتنا.. أقبلك.. أقبلك».

من الطبيعي مع مرور الزمن يعتاد الزوجان على بعضهما ولا تستمر تلك العلاقة الحميمة بل تتناقص تدريجياً. ونحن أيضاً اعتدنا هذا النمط من الحياة الزوجية وأصبحنا نهمل بعضنا أحياناً. كنا لا نتراسل أحياناً، وأحياناً كنا نهمل تعليق الرسائل التي كتبناها.

مرت السنون وانقطعت الرسائل نهائياً بيننا. ولكنني كنت أعلم أن زوجتي تأتي وتخرج من البيت بصورة منظمة. وعرفت ذلك من الفوضى الموجودة في البيت وفي مائدة الطعام أو من الجوارب الموجودة أمام المذياع أو ألبستها الداخلية. أو من طبق السجاير. أو مقصات الشعر.

كنا نستطيع أن نلتقي في أيام الأحد ولكن زوجتي كانت تذهب لزيارة أقاربها، أما أنا فكنت أذهب إلى عملي طمعاً في زيادة الدخل.

وهكذا مضت عدة سنوات على زواجنا السعيد.

وفي أحد الأيام جرت لي حادثة لا تخطر على بال فقد ذهبت إلى السينما بعد ان زهقت من جو العمل. وفي مدخل السينما هَجَمَت عليّ إحدى السيدات المتأنقات ولفَّت ذراعيها على رقبتي. وهي تقول:

ـ حياتي.. روحي.. عسلي.

ـ أرجوك يا سيدتي.. أنا رب عائلة محترم ولا أحب مثل هذه الميوعة.

فأجابتني المرأة:

ـ ألم تعرفني؟ أنا زوجتك بكيزة.

خجلت كثيراً.

ـ يا.. فأنت إذن زوجتي الحبيبة بكيزة.. عذراً لأنني لم أعرفك وأذهلتني المفاجأة.. منذ مدة لم أرك.. ما شاء الله لقد كبرت كثيراً.

بعدها أشارت إلى ثلاثة أطفال كانوا واقفين بجانبها. صبيان وبنت وقالت:

ـ هؤلاء أولادنا.

وبحنان أبوي صافحت الأولاد. لكن ابنتي الحبيبة همست في أذن أمها قائلة:

ـ أمان يا أمي. أنت قليلة ذوق. أبهذا الشكل يكون الأب، كان يقف بجانب زوجتي رجل عرفتني عليه قائلة:

ـ هذا خالي..

مضت سنوات عدة ونحن سعيدان في زواجنا. فلو لم أتزوج هذه المرأة العاملة. لكنت معرّضاً ليل نهار للشجار مع زوجتي. لكن كل هذه السنوات لم يحصل بيني وبينها ما يعكر سعادتنا الزوجية.

ولأننا بسبب ظروف العمل لا نرى بعضنا البعض فإننا لا نتشاجر إننا نعيش حياة هادئة لا يعكّر صفوها شيء.

○ ○ ○

لكي لا أطيل عليكم أيها السادة

الخطاب الذي ألقي في حفل إنزال الباخرة «عابدين»...

أيها الضيوف المحترمون.. أيها الرؤساء الأكارم... أيها الأصدقاء الأعزاء!.. أيها السيدات والسادة.

بمناسبة حفل إنزال الباخرة عابدين إن شاء الله.. أشكركم باسم جميع منتسبي البحرية والعاملين في البواخر. والقوارب وعبّارات الحمولة. وأقبل أيدي الكبار وعيون الأحباء الصغار.

كما أشكر كل من منحني هذا الشرف الكبير وأعطاني فرصة الحديث وعلى رأسهم. الحكومة ورؤساؤنا الأكارم. السيد وزير المواصلات. والسيد مدير بنك البحرية. ومعاون المدير. ومدراء الشُعب. وجميع ربابنة البواخر وعمال. التشغيل. والوقوف وعمال التحميل والتفريغ.

كما أوجه في نفس الوقت شكري العميق إلى الفريق الطبي الذي أجرى عملية جراحية لزوجتي الحبيبة التي كانت تعاني من مرض عضال والذين كانوا السبب في عودة زوجتي لي ولأولادها. وعلى رأس هذا الفريق البروفسور (حقي) المحترم والدكاترة الذين أشرفوا على العلاج وهم الدكتورة (نبهات) والدكتور (أورام) ومساعديهم الدكتورة (هاجر) والدكتور (عزت) ورئيسة الممرضات فاطمة. وخدم المشفى السادة. قدري، رمضان، شعبان. وإلى البواب حسن الذي استطاع ايجاد غرفة خالية وإلى السيد فاروق رئيس شعبة الحزب الذي أعطاني بطاقة توصية. ورغم جهود جميع هؤلاء واهتماماتهم ونتيجة خطأ في العملية ذهبت

زوجتي إلى دار البقاء تلك المرأة الصالحة التي هي من أحفاد السلطان سليم وبرباروس وكريمة جاويد مدير اللوازم وبهذه المناسبة أشكر كل من شاركني أحزاني سواء أكان ذلك بالهاتف أو البرقيات أو الرسائل. ولأن حزني الشديد منعني من أن أبلغهم شكري فرداً فرداً. لذا أرجو أن تبلغوهم عني وحيثما كانوا إمتناني وشكري العميقين سادتي.. بمناسبة حفل إنزال الباخرة عابدين هذا اليوم أرجو ان تسمحوا لي كي أتحدث بإيجاز عن السفن والبحرية وبحارتنا بشكل خاص.. داخل قوسين أقول لكم منذ الآن أن باستطاعة كل من يشعر بأنه قد يصل إلى وضع يكون فيه (محصوراً) أن يذهب ليأخذ راحته.

سادتي.. كانت أول سفينة سجلها التاريخ هي سفينة نوح. وآخر سفينة هي سفينة عابدين هذه.. وأيضاً أول ربّان في العالم هو نوح وآخر ربّان هو كابتن فريق غلطة سراي لكرة القدم. ولن أطيل عليكم فالسفن أنواع كالبواخر والقوارب. والسفن الصغيرة. وقاطرات السفن وكل هذه السفن تجري في البحر. أما سفن محمد الفاتح والقطارات التي يسمونها وابور فإنها تسير في البر، لكن بعض سفننا لا تسير في البحر بعضها يسير في البحر والبر في آن واحد. لأنها إذا سارت في البر يصطدم بعضها بحيتان (الفوكا) وتبقى في البر. ولكي لا أطيل عليكم أيها السادة أقول أن أول سفينة كانت شراعية ومصنوعة من الأخشاب. وبعدها اخترع فون بابن المرجل البخاري وصنع أول سفينة تسير على البخار. ثم صنعت بواخر تعمل على المازوت. وبإصرارنا نحن فقد صنعنا بواخر تسير على الآزوت. سفننا تعمل بالمال فقط، ولدينا أيضاً سفن الجبنة التي تعمل بالكلام أيضاً.

لا أريد الإطالة عليكم أيها السادة. فالسفن حكاياتها لا تنتهي. ولكي أدخل البهجة على حديثي هذا اسمحوا لي أن أنقل إليكم بعض خواطري

عن السفن. قبل ثلاثين عاماً. وفي ذات مرة ركبنا سفينة أنا والمرحوم والدي ولأنه لم يكن لدينا تذاكر وضعونا عند مرجل الباخرة وألزمنا بتزويد المراجل بالفحم الحجري. وبعدها أخرجونا من الباخرة وألقونا في جزيرة خالية من الناس أمضينا فيها بضعة أيام..

أيها السيدات والسادة.. يستطيع الخروج من كان محصوراً.. ولا أريد الإطالة أيها السادة فالسفينة شيء مهم جداً. قد تتساءلون لماذا هي مهمة. معروف أنها مهمة لأن القبطان يحرص على إنقاذ سفينته.

هنالك سفن. كما يوجد بحارة. وهنالك فرق بين سفينة وأخرى. فالسفينة يوجد فيها عمود. ومدخنة ومرجل وعنابر. ومخازن. وجنازير. وفيها قمرة. ودخان ومركز قيادة للربّان. وأيضاً ولكي لا أطيل فيها إطارات مطاطية وقوارب للنجاة. وفيها صفارة. وأيضاً ولكي لا أطيل عليكم فيها فحم وفيها محرك وفيها جنازير.. وفيها دولاب. وفيها بوصلة ولكي لا أطيل عليكم. فيها دورات مياه ولها مقدمة ومؤخرة ولاسلكي.

ملاحظة: «إن خطبة هذا الخطيب المفوّه مؤلفة من أربعة وعشرين قسماً. وإن كل ما تحدث به الخطيب كان عبارة عن الباب الأول من الفصل الأول من القسم الأول. ولا زالت الخطبة مستمرة».

○ ○ ○

مبارزة عبر التاريخ

اليوم طلعوا علينا باتجاه جديد في القصة. فبطل القصة التي جرت أحداثها قبل عيسى بخمسة آلاف عام وحتى الآن يولد ويموت ويعيش عدة مرات. هناك نفس تريد هذا النمط. فهي كذكر حوادث جرت قبل ألفي عام.

هذا حدث معي أيضاً. فبالرغم من أنني لم أتعاطَ المخدرات. ولم أكن أحلم. وبينما كنت كعادتي جالساً أحسب ديوني على الورقة إذ بالباب يُفتح وكما في الأفلام التاريخية يدخل رجلٌ لابساً الدرع الذي يغطي جسمه من رأسه حتى أخمص قدميه. يشبه جنود الحملة الصليبية. وقال لي:

ـ جلالة ملك فرنسا لويس السادس يهديك السلام ويطلب منك الذهاب إلى القصر.

فهمت ان الرجل به مس من الجنون ناديت على الأولاد.

ـ يا أولادي..

دخلت ابنتي وابني وانحنيا جاثيين على ركبتيهما ومطأطئين رأسيهما أمام هذا الرجل الذي يصلح بلباسه المدرع أن يكون نموذج إعلان لمعمل يصنع الأدوات المعدنية. وقالا له:

ـ أهلاً وسهلاً أيها الفارس.

قلت لهما مندهشاً:

ـ هل جننتما يا أولادي. عن أي فارس تتحدثان؟ نحن في القرن العشرين.

ـ هل تحلم يا أبي. أي قرن عشرين؟ نحن في القرن الثاني عشر.

من الممكن أن نغلط في الحساب. لكن هل من الممكن أن نخطئ بثمانمائة عام.

الموضوع لم يكن فيه شيء من الهزل. لقد كان في انتظاري خارج المنزل أربعة أحصنة وخادمان ركبنا الأحصنة وذهبنا إلى القصر كان لويس السادس جالساً على العرش منذ الصباح الباكر التفت إلي وقال:

ـ انظر إلي إن الفارس (دو كركران) شتم البابا...

ـ هل هذا حسنٌ؟!

ـ حسن. أم غير حسن هذا شيء يعرفه قداسة البابا.. اليوم استدعى البابا ذلك الفارس للمبارزة. لكن الفارس وجد رجلاً معدماً لينوب عنه بالمبارزة. والبابا المحترم بدافع الرأفة والعطف عليك ولأنك لا تستطيع دفع آجار البيت قبل بتلطف أن تقوم أنت بالمبارزة بدلاً عنه.

ـ يا صاحب الجلالة. أنا لا أعرف بابا هذه الكنيسة. ولا شكل ذلك الفارس. وأرجو أن لا تفهموا كلامي بأنني أدعي المعرفة. ألا يمكن أن نعيش أنا والبابا والفارس بسلام دون عراك أو مبارزة؟

ـ القانون هو القانون هيا إلى الغابة!..

ركبنا العربة المغلقة وذهبنا إلى الغابة في عتمة الصباح ووقفنا في مكان أرضه مستوية.

قال لي البابا:

ـ سأمنحك عشر ليرات لأنك قبلت المبارزة بدلاً عني. قلت له:

ـ ما دمت ستصنع هذا الجميل فليكن هذا المبلغ بالدولار!.. فأجابني البابا:

ـ لا تخلط في الأمور، فأمريكا لازالت غير مكتشفة بعد فأين الدولار؟ إذا مت في المبارزة فستأخذ عشر ليرات وإذا بقيت على قيد الحياة ستأخذ ليرتين ونصف...

عشر ليرات في ذلك الزمان تعادل عشرة آلاف الآن.. الموضوع شائك إما أن تتخلى عن العشر ليرات.. أو تتخلى عن روحك.. رفعت يدي في الهواء كما فعل هاملت وصحت قائلاً:

ـ توبي أورنت توبي ـ الحياة أو عشر ليرات.

هذا هو الموضوع.

ـ نظرت إلى ذلك الشخص الذي سأبارزه. كان مثلي رجلاً غريباً ومسكيناً نحن نتبارز عوضاً عن البابا والفارس لأنهما شتما بعضهما. بينما كانت علائم السرور والبهجة بادية عليهما وهما يتبادلان الضحك والنكات.

قال الفارس الأصلي.

ـ أنا أراهن بعشرة آلاف ليرة بأن بديلي سيقضي على ذلك المسكين الذي يتبارز عنكم.

فأجابه البابا المحترم:

ـ وأنا أضيف على هذا المبلغ ألفي ليرة وأراهن بأن بديلي الذي هزل جسمه من الجوع سيهجم على بديلك كالبهلوان ويقضي عليه. كان هناك حسب قانون المبارزة شاهدان ومحامي الدفاع وقاضٍ.. قال لنا القاضي:

ـ الغالب يستطيع قتل المغلوب بالطريقة التي يريدها. ويأخذ زوجته وجميع أمواله بعد ذلك. ولذلك تبارزا بشجاعة أيها الأسدان.. أتمنى لكما حظاً وافراً.

حضر الشهود إلى وسط الساحة.. وصاح الرئيس المشرف على المبارزة قائلاً:

ـ هل أنتما جاهزان..؟

صحت قائلاً بعد ان رفعت بنطالي ومسحت أنفي.

ـ جاهزون...

كم كان السيف ثقيلاً..

جات جات.. جات.. جتاجت. دنوت من خصمي وهمست في أذنه وقلت له:

ـ دعك من هذا الغباء.. سألقي بنفسي على الأرض كأنني ميت وينتهي كل شيء.

اتضح لي أنه كان يفكر بجدية أكثر. فقال لي:

ـ كلا سوف لن أمنحك هذه الفرصة. ألا تعرف أنهما سيدفعان مالاً أكثر لمن يُقتل. لذلك فإنني سأترك رقبتي مكشوفة أمامك لكي تقتلني.

وكشخص يدخل الكباب في السيخ أدخلت سيفي في معدة ذلك الشخص.. كانت معدته خاوية فدخل السيف بسهولة كأنني أدخلته في كيس من التبن، لكنه تصرف بمهارة أكثر وقطعني نصفين كمن يقطع الخيار.

الآن طرأ على تفكيري سؤال. هو كيف ستكون نهاية هذه القصة؟

إذا قلت بأنني فتحت عيني وإذا بي في حلم فستكون هذه النهاية

كلاسيكية علماً بأنني قلت منذ البداية أنه ليس حلماً. على الرجل أن لا يرجع في كلامه.

وإذا قلت أنني الآن في مصح عقلي فسوف لا تصدقون ذلك. لذا رأيت أن أفضل ما عليَّ قوله هو الصدق... لقد أسلمت روحي منذ ذلك اليوم، فهي حتى اليوم تبدِّل في قوالبها دوماً. ولكن روحي الفقيرة والمهترئة لا تفتش إلا عن قوالب لأناس فقراء دراويش. الحقيقة أنني مللت من الدخول في قوالب الناس المحرومين الذين يتصارعون من أجل الحياة ويقتلون بدلاً عن غيرهم من أجل بضعة قروش. الحقيقة أنني لا أستطيع أن أضع روحي في قالب جيد. لكنني إذا وضعت روحي في قالب ملك للحديد أو القطن أو السكر وجاء عزرائيل ليقبض روحي فإنني سأقول له.

ـ خذ يا صديقي عشرة آلاف أو مائة ألف دولار. لأنك ستجد كثيراً من المغفلين الذين يرضون أن يضحوا بأنفسهم بدلاً عني.

○ ○ ○

كيف يتم العثور على الجاني

كان بعض من رجال شرطة دولة (بانا كورجيا) يتبعون دورة تدريبية أقامتها الشرطة الفيدرالية في أميركا عن فن اكتشاف الجريمة. وفي الشهر الأخير من هذه الدورة التي استمرت ستة أشهر انصب اهتمامهم في تدريبهم على آلة كشف الكذب.

كان مدير الدورة مستر هاري ويلز يحدِّث رجال شرطة دولة (بانا كورجيا) الذين كانوا ينصتون إليه باهتمام شديد قائلاً:

ـ أيها السادة دَرْسنا اليوم هو جهاز قراءة الكذب هذا الجهاز له فائدة كبيرة في البحث والاستجواب فقد أصبح عملنا سهلاً بعد صنع هذا الجهاز من قبل العلماء والفنيين الأمريكيين. لنفترض أن هناك أثنى عشر متهماً في قضية ما. نربط هؤلاء المتهمين كل واحد على حدة بسلك إلى الجهاز بعدها نبدأ الاستجواب. ونستطيع أن نعرف فوراً من كانت أقواله كاذبة وهكذا نستطيع كشف المذنب.

أرسل مستر هاري ويلز يطلب إحضار الجهاز ثم استمر في درسه كالتالي:

ـ كما ترون إنه جهاز صغير جداً ومؤلف من أربع قطع وسنقوم بتجربته على أحد المتهمين.

دخل رجل أنيق طوله ١,٩٢م وأجلسوه على الكرسي وبدأ الأستاذ هاري ويلز بالشرح.

ـ سنربط إحدى القطع الأربعة للجهاز في بطن المتهم. والأخرى

فوق قلبه. وفوق رأسه أما الرابعة فسنربطها في مؤخرته. لأن هذه النقاط الأربع هي الأكثر حساسية في جسم الإنسان. وما أن يجيب المتهم على أحد الأسئلة بالكذب فإن بطنه ستعرق من الهيجان فتسجل الآلة العرق الذي لا يرى في العين. أما القطعة الموجودة على القلب ستتحرك إبرتها. والقطعة التي على الرأس ترسم منحنى بيانياً. أما القطعة الموجودة في مؤخرة المتهم وبسبب هيجانه تحدث بعض الاهتزازات وتبدأ الآلة عندئذ بإصدار صوت جرس وهكذا يتضح لنا فيما إذا كان المتهم مذنباً أم لا.

أيها السادة... سنبدأ التجربة الآن. والشخص الذي سنراقبه بعد أن وصلناه بالجهاز هو مواطن أميركي من أصل إيطالي واسمه (فيرا بونجيانو).

جَدُّ هذا الرجل كان يقوم بأعمال القرصنة والسلب في السفن. وهو مطلوب بجرم جناية ارتكبها بحق اخوته الثلاثة الذين أعدمهم على خازوق ناشف. فهرب من إيطاليا والتجأ إلى أميركا بلد القانون والعدالة. وفي أميركا قتل ثمانية من رفاقه أثناء البحث عن الذهب وقُتلَ هو من قبل رفيقه التاسع. هذا الرجل الديناميكي تركه جَدُّه لنا كميراث لكي لا تكون الشرطة في أميركا أو العالم بدون عمل.

هذا الشخص الذي أمامكم هو آخر نموذج من هذه العائلة التي تحتل حيزاً خاصاً في تاريخ الجنايات والشرطة في أميركا قام فيرا بونجيانو بجريمته الأولى عندما كان في الثالثة عشرة من عمره إذ أقدم على سرقة مركز بريد. أُدخل على أثر ذلك إلى إصلاحية الأحداث حيث بقي فيها مدة عامين. بعدها امتهن بالسرقة مع آل

كابون كما قام بتشغيل صالة للقمار، ثم أصبح رئيساً لعصابة سرقة في مدينة شيكاغو. وحتى الآن قام بخطف أربعة أطفال وعشرين امرأة وسرق ١٠٠ بنك. كما قام أيضاً بأعمال التهريب. وقتل شخصين. مارس تجارة الرق الأبيض. ولأن فيرا بونجيانو قد طعن في السن وتعب في حياته المسلكية فقد أدخل سجن سينغ ـ سينغ وبقي فيه أربع سنوات ارتاح خلالها وخرج من السجن وهو إنسان سويْ ويُعَدَّ الآن من كبار رجال الأعمال في أميركا. فلديه مكتب فخم في وول ستريت. ويموِّل ثلاث مجلات وصحيفة وهو أيضاً رئيس مجلس إدارة شركة الحديد المصنَّع من الصفيح. وشريك في أربع شركات أخرى. أما البنوك التي سرقها سابقاً فقد اصبح أحد شركائها الآن.

سأل أحد أفراد شرطة بانا كورجيا بعد أن نفذ صبره أستاذ الدورة هاري ويلز.

ـ والآن ما هي تهمة فيرا بونجيانو؟

أجابه الأستاذ.

ـ إنه متهم الآن بتجاوز السرعة. ففي حين كانت اللوحة تشير إلى عدم تجاوز ١٢٠ كم في الساعة. كان يقود سيارته بسرعة ١٢١ كم في الساعة.

نظر رجال شرطة بانا كورجيا إلى بعضهم في حيرة عندما سمعوا بهذا الذنب الصغير لأنهم كانوا ينتظرون جريمة مدهشة لم تحدث من قبل. تابع مستر هاري ويلز حديثه قائلاً:

ـ لم يتعرف شرطي السير على المذنب. لذلك جمعنا كل أصحاب السوابق المسجلين في أرشيفنا وأجرينا عليهم التجربة بهذا الجهاز واتضح

أنهم أبرياء. وأخيراً قررنا إجراء التجربة الآن على فيرا بونجيانو.

أوصل الأستاذ شريط الجهاز بالمأخذ الكهربائي وشغَّله وبدأ بسؤال المتهم.

ـ مستر فيرا بونجيانو. هل أنتم من كان يقود سيارته بسرعة ١٢١ كم في الساعة متجاوزاً الحد المسموح في الشارع رقم ١٥١ يوم الخميس المصادف ١٨ آذار الساعة الثانية وإحدى وثلاثين دقيقة. وكنتم تقودون سيارة رولز رايس لونها نفطي وبجانبكم إحدى صديقاتكم وهي أم وكنتم ترتدون لباساً أزرق وتعقدون ربطة العنق البيضاء المرقطة بأحمر والتي تعقدونها الآن.

ـ كلا...

قال فيرا بونجيانو كلا ولكن القطعة المربوطة على بطنه قد سجلت والتي على قلبه رسمت المنحني وتحركت الإبرة في القطعة الموضوعة على رأسه. ورن الجرس الموجود في القطعة المثبتة في مؤخرته.

التفت مستر هاري ويلز إلى رجال شرطة بانا كورجيا وقال:

ـ كما ترون فإن فيرا بونجيانو يكذب ولقد كشفنا كذبه بواسطة هذا الجهاز.

صاح رجال شرطة بانا كورجيا بصوت واحد

ـ هذا الجهاز لا يَصْلُح لبلادنا أبداً فلدينا في بلادنا أساليب محلية تعطي نتيجة أفضل من هذا الجهاز!

استغرب مستر هاري ويلز ذلك وقال:

ـ لا يمكن. هذا الجهاز يعطي نفس النتيجة في كل أنحاء العالم.

ردوا عليه قائلين: لا يعطي عندنا نتيجة!

أمام هذا الإدِّعاء ولكي يتأكد مستر هاري ويلز تماماً حصل من الشرطة الفيدرالية على إذن وذهب إلى بانا كورجيا. وعند مدير أمن بانا كورجيا جاءوا بمتهم وبدأ أحد شرطة بانا كورجيا بشرح سوابق هذا المتهم تماماً كما فعل مستر هاري مع فيرا بونجيانو.

ـ هذا الرجل وحش قتل زوجته وحماته وأخت زوجته واثنين من جيرانه وهذه اعترافاته.

أعطوا مستر هاري إفادة المتهم الموقعة من قبله والمترجمة إلى اللغة الإنكليزية والذي يعترف بها بقتل خمسة أشخاص. وقالوا له:

ـ جرب جهازك لنرى ما هي النتيجة التي سنحصل عليها.

بعد أن ربط مستر هاري جهاز كشف الكذب بالمتهم سألهُ

ـ هل أنت الوحش الذي قتل زوجته وحماته وأخت زوجته واثنين من الجيران وفرمهم كما تفرم البراصه. فأجاب المتهم:

ـ كلا.

قال مستر هاري والحيرة تبدو عليه، لم تتحرك الإبرة في الجهاز فيه ولم يرسم المنحني ولم يرن الجرس.

ـ صحيح أن هذا الجهاز لا يفيد لبلادكم... ثم أردف قائلاً:

ـ ولكن لماذا يا ترى؟

أجاب رجال شرطة بانا كورجيا.

ـ بسبب غلاء المعيشة في بلادنا وبسبب شد الأحزمة على البطون لم يعد هناك بطون تتعرق. أما بالنسبة لضربات الهيجان في القلب فإن

الهيجان الذي يتعرق بسببه مواطننا كل يوم جرّاء الطرق العتيقة والسيارات والعربات والحافلات والتي تعرضهم للدهس أحياناً. ولكثرة ما اعتادوا على هذه الأمور أصبح الهيجان الذي يمكن أن يسببه سؤالكم شيئاً لا يذكر أبداً.

وأما بالنسبة للقطعة الموضوعة على الرأس... فالجميع هنا يكذب السيدات على أزواجهن والأزواج على زوجاتهم. البائع على المشتري والمشتري على البائع. والمستأجر على صاحب البيت وصاحب البيت على المستأجر أي الجميع هنا لكثرة ما اعتادوا الكذب على بعضهم أصبح الكذب على هذا الجهاز يشكل صفراً على الشمال. أما بالنسبة للمؤخرة فالأسباب كثيرة. ففي الملاعب والمباريات حيث التزاحم الشديد. وفي أماكن حجز تذاكر الدخول للسينما والمسارح أيضاً وفي الدوائر الحكومية حيث يقولون لك: اذهب الاثنين، عد الخميس لذلك لم يعد لمؤخراتنا أية حساسية. ومؤخراتنا لا تتحسس بمثل هذا الجهاز.

بعد أن سمع مستر هاري هذه الإيضاحات سأل الوحش المروِّع للشعب:

ـ أنت قلت الآن أنك بريء. علماً بأنك تقر بالإفادة الموقعة من قبلك بقتل خمسة أشخاص.

ـ دعهم يسألونك أنت أيضاً ولنرى ما سيكون جوابك؟

عندها التفت مستر هاري إلى شرطة بانا كورجيا وسألهم:

ـ لقد انتابني الفضول. كيف استطعتم القبض على هذا الوحش؟

ـ الأمر في غاية البساطة فقد أُخبرنا أن هناك خمسة أشخاص قتلوا

منذ أسبوع تحركنا بعد خمسة عشر يوماً من هذه الإخبارية وبعد فترة قصيرة من البحث عثرنا على المقتولين وقبضنا عليهم ولكننا لم نجد القاتل هناك.

لابد من وجود قاتل لهؤلاء الخمسة. لذلك أعلنَّا عن القاتل وطلبنا منه تسليم نفسه لكن القاتل لم يأت أعلنَّا عن مكافأة في الجرائد لمن يجد القاتل لكننا لم نحصل على نتيجة. ولكي لا يعذبنا ضميرنا بأننا لم نقم بواجبنا بدأنا بالقبض على كل شخص يمكن أن نشتبه به. وحتماً لابد أن يكون القاتل بين هؤلاء المقبوض عليهم. لأنه لن يطير. ورغم أن البحث والتحقيق لم ينته بعد إلا أننا وجدنا تسعة قَتَلةْ حتى الآن وفق أسلوبنا الذي اتّبعناه في التحقيق وهذا أحدهم.

فتح مستر هاري عينيه مستغرباً وسألهم:

- هل يمكن أن تجربوا أسلوبكم عليَّ؟

- طبعاً... فوراً. ولدينا غرف خاصة لذلك.

بعد أن أدخلوا مستر هاري الغرفة الأولى خرج بعد عشر دقائق هارباً منها حيث كان يعلو فيها صوت التوسل والبكاء والضجيج وقال صائحاً

- لا لزوم للغرف الأخرى!

وبعد أن وقع مستر هاري الخبير الموفد من قبل الشرطة الفيدرالية الأميركية على الضبط الذي يعترف به الوحش القاتل بأنه قتل خمسة أشخاص قالوا لمستر هاري.

- لقد أصبحت الآن القاتل العاشر في هذه الجناية. ثم سألوه

- كيف وجدت أسلوبنا؟

ـ ممتاز... ولكن حبذا لو كان لتلك العصي شرار العصي لكان الوضع أسهل.

عندها قال له رئيس شرطة بانا كورجيا.

ـ نحن كيفما كان نستطيع إيجاد المجرمين وفق أسلوبنا. نرجو منكم أن تخترعوا لنا جهازاً يستطيع كشف الجريمة. لأننا نجد صعوبة بالغة في إيجاد جريمة لجميع المجرمين الذين نقبض عليهم.

○ ○ ○

حُلْمٌ أميركي

وجدت نفسي في واشنطن وقد أحسست بالظمأ ولا أدري هل كان ذلك بسبب الجوع أم بسبب الشبع. طبعاً لقد كان ذلك في الحلم. ربما أنني رجل مهم. قام الأميركيون بتنظيم حفل استقبال لي وقام أحدهم وألقى خطاباً رحب بي. وأنا الآن أرد على الخطبة.

ـ نحن... أنتم... منا إليكم... نحن وأنتم... بسبب المساعدات... ها أنتم... وها نحن... لدينا... مشترك... معكم... قضايا... لأجلنا... الإنسانية... أنتم... ونحن... الديمقراطية... نحن... الحرية... أنتم... هل أنتم والدولار؟ بالأصل... نحن... يعيش خاصتكم... وخاصتنا...

موجة من التصفيق. التقاط صور من قيل مصوري الصحف... التفت إلي الشخص الأميركي المهم. الذي كان في استقبالي قائلاً.

ـ مبروك. لم يكن هناك حديث في تاريخ السياسة أجمل من حديثكم! بعد ذلك بدأ عرض الاحتفال. كنت أرد التحية على أفراد القوات الأميركية غير المسلحة حتى جفَّ حلقي: القنابل الشقراء والقنابل السمراء. والقنابل الهيدروجينية. والقنابل الكوبالتيه، ملكة جمال الكازينوهات، ملكة جمال عارضات الأزياء، ملكة جمال البكيني. وملكة جمال نوادي الجائعين...

وأنا كذلك. قالوا لي

ـ تفضل إلى البيت الأبيض لأن لديك مؤتمراً صحفياً...

أمطرني الصحفيون الذين كانوا يحيطون بي من كل جانب بسيل من الأسئلة، فقلت لهم:

ـ لا تسألوا جميعكم مرة واحدة. إذا كنتم رجالاً فاسألوا فرداً فرداً... سألني أحد رؤساء التحرير الذي يكتب في ست وثلاثين جريدة أمريكية.

ـ كم عدد الصحف التي باستطاعة رئيس التحرير عندكم أن يكتب فيها؟

ـ نحن لدينا رئيس تحرير لكل صحيفة لكن الجميع يكتبون نفس الشيء!

ـ أناس مختلفون. كيف يكتبون نفس الشيء!

ـ نحن ليس لدينا اختلاف... لدينا وحدة... اتحاد... وهكذا.

ـ هل لديكم ديمقراطية؟

ـ كان لدينا القليل منها ولكن بسبب فقدان قطع التبديل في الفترة الأخيرة فإننا لم نعد نستعملها.

ـ ما هو مفهومكم للديمقراطية؟

ـ الديمقراطية معناها، الشعب. لأجل الشعب، في سبيل الشعب. من قِبَلْ الشعب، حَقْ، حقوق. حَقْ ، يُقْ.

سألني أحد المحررين في صحيفة تبيع مليون نسخة يومياً.

ـ ما هي الأحداث المهمة لديكم والتي تشكل الشغل الشاغل للشعب؟

ـ كثيرة جداً... وأهمها الصورة التي وردتنا من عندكم لإحدى نجوم السينما وهي شبه عارية ونشرت هذه الصورة في إحدى الصحف لدينا.

كان الناس مشغولين جداً في مناقشة موضوع هذه النجمة وهل كانت ترتدي ألبسة داخلية أم لا. لدرجة أنهم نسوا موضوع فقدان مادة السكر. والغلاء. والديمقراطية والحرية... وفي هذه الأيام الناس من سن السابعة وحتى فوق السبعين مشغولون بموضوع انتقال لاعب نادي فنار بهجه جاتين إلى نادي وفا الرياضي.

ـ كيف هو الوضع الاقتصادي لديكم...؟

ـ جيد جداً... ولكن في المدة الأخيرة. سيصبح يسارياً، لأن أحد نواب المعارضة قام بعمل غير مناسب إذ خطب في إحدى القرى البعيدة وتكلم كلاماً غريباً. وعلى أثر ذلك ارتفعت أسعار السكائر والمشروبات بنسبة ثلاثين بالمائة. حتى البندورة لم تعد موجودة في الأسواق. الآجارات ارتفعت. المياه انقطعت. حرارة الجو ارتفعت أيضاً. حتى الدراق لم يعد موجوداً في الأسواق. والزنك الذي يصنع منه الكليشهات مفقود. يعني بسبب هؤلاء المعارضين تعرضنا لضغط شديد... وهناك حرب أيضاً.

ـ هل قلت حرب؟

ـ حرب... نعم حرب... لدينا محافظ ممتاز يتصدى ببسالة وقوة لجميع أعمال التهريب والمهربين... وبالأمس كان هذا الوالي يفكر فيما يجب أن يفعله وعلى ما يبدو كانت حرارة الجو مرتفعة. لذلك أعلن الحرب على الباعة المتجولين. كان يلقي خطباً رنانة ومتفجرة لدرجة أن الباذنجان والفليفلة والدراق والبندورة سحبت من الأسواق.

انتهى المؤتمر الصحفي. التفت إليَّ أحد المسؤولين وسألني.

ـ ما هو سبب زيارتكم للولايات المتحدة؟

ـ سبب مجيئي... يعني... معلوم... الإنسان... لهذا السبب نحن...

قلعة للديمقراطية... ولا يكفي أن نقول قلعة فقط. فـ «فالقلعة»(*) تحتاج إلى أعمدة وإلى شِباكْ. وإلى كرة جلدية نمرة خمسة.

كنت سأطلب أشياء كثيرة لو لم يدق جرس الساعة ليوقظني كي أذهب إلى عملي...

○ ○ ○

(*) القلعة باللغة التركية يقصد بها المرمى في ملعب كرة القدم.

كيف تقْرأ المقالة

أنتم تستطيعون أن تقرأوا كتاباتي براحتكم سواء أكانت هذه الكتابات جيدة أم سيئة؟ لكن اسألوني كيف أقرأ ما كتبته قبل إرساله إلى المطبعة. طبعاً أقرأه أمام رئيس التحرير ولكن كيف؟

انتبهوا لي حتى أشرح لكم. لأن ذلك لا ليس مثل قراءتكم.

أنا أدخل غرفته في الوقت الذي لا يكون لديه أحد ولا يتكلم مع أحد بالهاتف. لأنه إذا حدث أي طارئ أثناء قراءتك للقصة. فإنها ستصبح مضطربة. وأنا الذي لا أهتم للإنسان إذا كان مضطرباً. أتضايق من القصة المضطربة.

أدخل إليه وبيدي لفَّةٌ من الورق مكتوبة وأنا خائف.

ـ أود... أهلاً وسهلاً عزيزي حسن. تعال اجلس هنا...

ـ هل أقرأ لك ما كتبته؟

ـ دقيقة واحدة من فضلك.

أدخن أربع سكائر حتى تنتهي الدقيقة!

ـ هيا باشر بالقراءة يا عزيزي.

عادة أبدأ بقراءة الأشياء التي أراها جيدة ومهمة بالنسبة لي. طبعاً هذا دهاء مني لأنكم تعلمون أن ردة الفعل الأولى مهمة جداً. فإذا بدأ الإنسان بالضحك واستسلم له فمن الصعب أن يمسك نفسه عنه. كذلك فإن لي

عادة سيئة عندما أقرأ. لا أشد صدري وانصب قامتي بل أقرأ وأنا خجلٌ كالأطفال المذنبين.

ابدأ القراءة...

ـ أحدهم...

ـ ترن... ترن: يرن جرس رئيس التحرير.

ـ ألو... كلا يا سيدي. هنا ليس كلية الفنون الجميلة... هنا مجلة أك بابا يُغلَق الهاتف بحدَّه فأبدأ القراءة.

ـ أحدهم...

تاك... تاك أحدهم يقرع الباب

ـ تفضل

يدخل معلم الكليشات. فيناوله رئيس التحرير الصور المطلوبة ليصنع كليشة لها. يشتكي معلم الكليشات من غلاء مادة الزنك فيشعر رئيس التحرير بأنه يريد رفع الأسعار. فيُسَفِّههُ مع كإمه.

يخرج فأبدأ أنا بالقراءة.

ـ أحدهم...

ترن... ترن... يرن الهاتف

ـ أو أو... أستاذي... شكراً جزيلاً... أرجو لكم طول العمر الحمد لله... على رأسي... طبعاً... بدون شك... مع السلامة.

يلتفت إلي ويسألني

ـ أين وصلنا؟

ـ أحدهم...

يضغط الجرس فيدخل مدير الإدارة ليسأله

ـ ماذا عن الكتاب الذي أرسلتموه لمعمل الورق هل أتاكم الجواب؟

ـ كلا...

ـ أمان اكتبوا مرة ثانية...

ـ على رأسي...

ـ أرسل لي إلهامي

يخرج مدير الإدارة

ـ أين وصلنا يا عزيزي حسن؟

ـ أحدهم...

ليدخل السيد إلهامي مدير التحرير فيسأله رئيس التحرير

ـ هل أرسلتم الأشياء المصححَّة إلى المطبعة؟

بعد نصف ساعة من الكلام لا يُفْهَمْ فيما إذا كانت الأعمدة المصححة قد ذهبت إلى المطبعة أم لا...

ـ ماذا كنا نقول يا حسن بيك؟

ـ أحدهم...!

ـ آمان قبل أن أنسى أريد أن أسألك ماذا لو رسمنا مثل هذا الكاريكاتير لرجل وزوجته.

ـ جميل جداً... خارق

أنا أعلم أن العمل ليس خارقاً. لأنه لا يسألني أبداً عن شيء جميل...

ـ ماذا قلت؟

ـ أحدهم...!

ترن... ترن...

ـ تفضل... مجلة أك بابا... نعم يا سيدتي... شكراً جزيلاً على اهتمامك. أنا ممتن لك كثيراً. شكراً... أنا بانتظارك.

هل تعرفين المقبرة... نعم المقبرة... بالقرب من البلدية... يجب أن تأتي عبر شارع أنقره... كلا على نفس الاستقامة... المكان سهلٌ جداً عشرون دقيقة وهو يشرح لها العنوان. أما أنا فلم أستطع الحصول على لحظة لأكمل القراءة.

ـ أحدهم...

يضغط الجرس فيقول للشخص الذي دخل

ـ أريد كوباً من الشاي... وعلبة ديازينولَ... اقرأ يا عزيزي حسن...

ـ أحدهم...

أحدهم يدق الباب

ـ تاك... تاك... تاك

ـ تفضل... واي يا سيدي... يا سلطاني... أهلاً وسهلاً

عناق وسؤال عن الأحوال.

ـ اسمحوا لنا بدقيقة فقد كنا نقرأ إحدى المقالات.

أنا أتلعثم كثيراً وأتضايق جداً إذا قرأت أمام شخصين.

ترن... ترن...

ـ نعم يا سيدي... ويجيب بحدَّة ماذا تقول! ارتفعت الأسعار وبحدة أكثر أنا لن أزيد ولا عشرة قروش. فالورق ارتفع سعره، والطباعة أيضاً. والكليشة. لكن لم يرتفع سعر المجلة... كلا... هذا لا يجوز... ويغلق الهاتف.

أنا أعلم أنه حسب قانون العطالة فإن الحدِّة لا تذهب فوراً بل بالتدريج. يمسح وجهه بماء الكولونيا ويلتفت إليّ قائلاً:

ـ اقرأ يا حسن بيك.

لا فائدة تُرجى بعد ذلك. ليس لواحد مثلي بل حتى لو جاء حسن الأقرع أو مارك توين...

ـ أحدهم...

قلب سحنته وقال لي:

ـ هذه الكتابة غير جيدة.

ـ نعم يا أستاذي

ـ دع القراءة الآن حتى يوم الاثنين.

ـ كم تريد يا أستاذ...

ـ اكتب غير هذه القصة!

ـ حاضر يا سيدي...

أغيِّر الكتابة وأذهب يوم الاثنين لقراءتها وبدلاً من أن أبدأها بكلمة أحدهم. أبدأوها بكلمة أحد الأشخاص. فيهتف رئيس التحرير قائلاً ممتاز. ستُنشر هذه القصة في المجلة وستقرأها أنت ولا أدري إذا كنت ستحبها أم لا أما أنا فقد أعجبت بها كثيراً.

○ ○ ○

شبكي، شبكي بم

لقد تعلمت أن الإنسان إذا لم يتصرف حسب عمره فإنه سيكون مدعاة للسخرية، كانوا يقولون: «إن من يجهل بعد الأربعين يذهب إلى الجنة وهو نظيف». إذا كنت تريد أن تجهل فليكن ذلك في سن العشرين أو الثلاثين. أما أنا ونكاية بالأعداء فقد بدأت بالجهل بعد سن الستين. وإذا كنت الآن في مشفى المجانين. فذلك عقاب لي للجهل الذي مارسته بغير زَمانه.

ليخلف الله عليكم. لي ولد في السنة الأخيرة بكلية الهندسة وبنت بالكاد استطاعت أن تنهي الإعدادية تزوجت بعد ذلك والآن لي حفيدان.

كنا لا نزال كالقطط الصغيرة العمياء لم نكد نفتح أعيننا على الدنيا أو نعرف عنها شيئاً حتى أغمض والدي عينيه ورحل عن هذا العالم. وأعلمكم بأنني أعتبر نفسي لم أعش منذ الثامنة عشرة وحتى الثامنة والخمسين.

لا تصدقوا هؤلاء العجائز الذين يعيبون على البنات لباس البكيني وعلى الشباب اللباس الأنيق... هم ليسوا عجائز ولكنهم يسفهون الشباب لأنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا مثلهم. وعلى كل لو كان هؤلاء العجائز متأكدين من أنهم سيكونون مقبولين لدى الآخرين لنزلوا البحر حتى بدون بكيني.

ولكي أخبركم كيف أصبت بالجنون ودخلت مشفى الأمراض العقلية فإن ذلك يتطلب مني أن أروي لكم القصة منذ البداية. وكما ترون فأنا لا

أتكلم كلاماً فارغاً وأنا قادر على تأليف جمل أفضل بكثير من الروائيين. كما أستطيع التكلم بمنطق ودراية أفضل من كثير من النواب ولكنني رغم ذلك فأنا في مشفى المجانين والسبب كله يعود إلى شيكا شيكا بم.

محسوبكم محام طبعاً تخرجت من كلية الحقوق وأنا من المحامين القديرين جداً ورغم ذلك فأنا لست محامياً في القضايا الجنائية ولا أمسك قضايا المجرمين الذين يقتلون أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهم. أو قضية مثل قضية وحش (أدا بازار) أو (قوينه) أو (سلطان أحمد) أو أي وحش قاتل سواء أكان ذلك في حيّنا أو في المدينة. ولا أمسك حتى دعاوى الزواج والطلاق ولا أحشر أنفي في الدعاوى التجارية. كل ما أمارسه من أعمال خلال ثلاثين عاماً في مكتبي هي قضايا المتقاعدين إضافة إلى أنني أعمل كمشاور حقوقي.

ما شاء الله: أصبح جميع أصدقائي أغنياء مثل قارون. وأنا أُدْهش كلما ذهبت إلى مكتب أحدهم ورغم أنني لا أحسد أحداً. إلا أن الذي يجذبني إلى مكاتبهم. السكرتيرات وضاربات الآلة الكاتبة. جراء الحسرة التي تنتابني لأنني لم ألبِ رغباتي الدفينة في حينها.

أخيراً نفذ صبري فنشرت إعلاناً في الصحف يقول «مطلوب سكرتيرة إلى مكتب أحد المحامين بأجر مغرٍ» يقولون أن عدد الإناث أكثر من الذكور وهذا صحيح. فلقد امتلأ المكتب بالنساء والبنات اللواتي يرغبن العمل كسكرتيرات. وكن يتفحصنني كمن يريد شراء بيت من رأسي إلى أخمص قدمي وكأنهن هن اللواتي سيأخذنني للعمل لديهن.

أعلم أنني كنت متعطشاً لهن لذلك فقد اصبح بلعومي يؤلمني من كثرة البنات اللواتي زرن المكتب. كنت خائفاً مما الذي أفعله. في اليوم الثالث للإعلان دخلت فتاة مكتبي! لا ليست فتاة بل آفة. ولكن

دعوني أعرفكم عن هذه الفتاة. هل رأيتم حقيبة الخرائط الكبيرة التي يحملها الضباط حين خروجهم إلى تدريب قتالي. لقد كانت الحقيبة التي تحملها على كتفها أكبر حجماً. وكانت ترتدي ثوباً يبدي مفاتنها. وقد كشف هذا الثوب عن قسم كبير من صدرها الذي اندفعت منه حبتا زيتون تصرخان لك قائلتين (كُلْني) كما كانت تنتعل في رجلها شيئاً ذا كعب عال يشبه الحذاء. أما شعرها فقد قامت بتجعيده بشكل جذاب.

وفيما هي تتقدم إلى طاولتي وتتغنج في مشيتها. حسبت نفسي فجأة بأنني سأكون شهيداً للحب فقلت في نفسي «يا رب.. امنح القوة لهذا الكهل كي يستطيع أن يحب».

قالت لي

ـ علمت أنكم تبحثون عن سكرتيرة!

ـ لم يكن بإمكاني إعطاء جواب. فقد اختفى صوتي وحبست أنفاسي إلا أنني كنت أشعر بنَفَسي يعلو ويهبط مثل كير الحداد.

ـ اسمي (بيرسان) في الواحدة والعشرين من عمري. طولي ١,٦٢ وزني ٥٧ كغ... عازبة وهوايتي الرقص أعبد الرقص. أملي في الحياة أن اصبح نجمة سينمائية. أحب من الزهور (المانوليا) ومن العطور (أوريفاني). آخر شخص أحببته كان بحاراً أمريكياً. كانت وهي تكلمني عن سيرتها الذاتية لا تتوقف عن مضغ العلكة التي كانت تصدر صوت جاك جاك. بقيت صامتاً فسألتني

ـ هل أعجبك؟

نظرت إليها وكان كل شيءٍ ممنوع يبدو واضحاً تحت (الكولون) الذي تلبسه فأجبتها بعد أن استجمعت كلّ قواي في شفاهي.

- نعم تعجبينني.

- أريد راتباً شهرياً قدره ألفان وستمائة ليرة.

قلت في نفسي ليكن معلوماً بأن دخلي من الاستشارات القانونية حوالي المبلغ الذي طَلَبَتْه. وهكذا تعرفت على شيكي شيكي بم. مع أن اسمها الأصلي (بيرسان) لكنني أناديها بشيكي شيكي بم. وبدأت منذ اليوم الأول بل من أول ساعة تعرفت عليها تقف أمامي وتقول.

شيكي شيكي بم

شيكي شيكي بم

تقولها وهي تهتز وتنط وترقص بشكل عجيب وجنوني. لقد نسينا العمل وأصبحنا نتناول طعام الغداء والعشاء مع بعض وفي يوم الجمعة سألتني.

- أين سنمضي عطلتنا الأسبوعية؟

- أين ترغبين؟

- قالت لنذهب إلى (يالوث).

صحيح أنني أذهب إلى يالوث وإلى الجُزُرْ وإلى بورصه ولكن لم يصدف أن لمست يداي يدي فتاة لأنه لو حدث ذلك لارتعش جسمي كمن مسه تيار كهربائي. وكانت تجد دوماً في أي مكان نقصده شاباً تبدأ شيكي بم الرقص معه... كأنني أطعمها وألبسها وأعطيها مصروف جيب ألفين وستمائة ليرة لترقص مع غيري. حتى أنه حدث أحدى المرات ونحن في الكازينو إذ اقترب مني شخص قليل الذوق وقال لي:

- هل هذه ابنتكم يا سيدي الوالد؟ ما شاء الله، ما شاء الله.

أما أنا ولكي أبدو شاباً فقد كنت أحلق ذقني باستمرار وأصبغ شعري

وألبس قمصاناً بياقة منشاة وبنطال مكوي. ودوماً ألبس الجديد وأضع وردة في صدري أيضاً.

وكلما قالت لي الهانم:

ـ ماذا جرى لك يا سيدي؟

ـ أهرب من الإجابة وأقول لها: هكذا الزمن الآن.

ـ كنت أتضايق من رقصها مع كل من هب ودب وفي أحد الأيام قلت لها أنني أغار عليها.

آه يا ربي لقد ركبها الغرور وبعدها جاءت وجلست في حضني وقد أمسكت خدي بيدها وقالت:

ـ أنت لا فائدة ترجي منك (يا ختيار) فلو كنت تجيد الرقص لكنت رقصت معك. كانت هذه أجمل لفته في حياتي. ثم لمعت في رأسي فكرة: أن أتعلم الرقص وأفاجئ (بيرسان) بذلك. وبعدها لن يستطيع أحد أن يأخذها مني. لكنني لا أستطيع الذهاب لأتلقى دروس الرقص وأنا في هذا العمر. عندها بدأت أراقبها وهي ترقص مع غيري. كنت أراقب حركات الأرجل والأيدي لم يكن ذلك الرقص يشبه الرقص أيام زمان كان أشبه شيء بمسيرة النزهة.

كنت عندما أعود إلى البيت أدخل إلى غرفتي وأبدأ الرقص وأضبط الإيقاع من فمي.

شيكي شيكي بم.

كنت أحتضن المخدّة وأتصورها وهي بين زراعي وعيناي على المرآة. بم... شيكي بم... بم. اندمجت كلية بالرقص وكان ذلك الاندماج يزداد حدة كلما رقصت أكثر. ظن الجيران الذين يقطنون أسفل بيتنا أنني ألفت

نظرهم بقدماي كعادتي في السابق عندما كان أولادهم يصدرون ضجيجاً أو أصواتاً مزعجة. صمتوا قليلاً. لكنهم عندما رأوا أن الضجيج مستمر وهناك أصواتاً عجيبة. صعدوا إلي وفيما أنا أقفز بم شيكي بم والعرق يتصبب مني وإذ بزوجتي وابنتي وابني وصهري وأحفادي يسترقون النظر من خرم الباب.

ـ قالوا والدهشة تبدوا عليهم... أيوه لقد جُنَّ المسكين.

ثم أردفت زوجتي قائلة:

ـ لا تعجبني أحواله في الأيام الأخيرة. لقد بدأت تظهر عليه علامات الجنون.

أما أنا فقد كنت مستمراً بالرقص بحدة... أما هم فقد بدأوا بالبكاء.

قالت زوجتي:

ـ أنا أخشى الدخول.

وقالت البنت

ـ لا أستطيع رؤيته وهو بهذه الحالة.

وأردف الصهر قائلاً:

ـ لنخبر الشرطة.

في الوقت الذي وصلت فيه الشرطة كنت لا أزال أنطنط محتضناً المخدة وبين قدمي قميص نوم طويل وأنا أقول: «بم شيكي بم» وما أن فتحُ الباب دخل ثلاثة من الشرطة طوقوني بسرعة وألقوني أرضاً ووضعوني في سيارة وأخذوني إلى مشفى المجانين.

فكرت أن أقول لهم بأنني لست مجنوناً وأنا أتعلم الرقص بنفسي لكنني غيرت هذه الفكرة. لأن تعلم الرقص بعد سن الستين أسوأ

وسيقولون عني مسكين لقد هزأ نفسه من أجل بنت في عمر أحفاده لذلك رأيت أن أستمر في هذا العرض عندها يشفقون عليَّ ويقولون «جن المسكين». لم أغير العرض الذي قمت به حتى في مخفر الشرطة أو أمام الأطباء «بم شيكي بم». طبعاً الأطباء وجدوا وبسرعة اسماً لاتينياً لهذا النوع من الجنون.

الآن مضى شهر وأنا في المشفى. لقد خفت حدَّة بم شيكي بم. وهم يفكرون الآن بإعطائي بعض الأدوية لكي يعود لي عقلي ويخرجونني من هنا. عاد إلي عقلي ولكنه تأخر.

رجاءً يا شباب. اعملوا ما تريدون لكن لكل زمانه، حتى الجهل له وقت وإلا سيصيبكم ما أصابني. لا تدفنوا رغباتكم في داخلكم. تنططوا ما شاء لكم ذلك. هيا لنرقص سوية.

«بم شيكي بم شيكي شيكي بم»!

○ ○ ○

الانتقام

يقولون أن الكُتّاب الكبار ليس لهم حظ مع النساء. حدث ذلك مع كل من هاشم ومحمود وسعيد فائق المسكين. ستقولون من أين خرجت لنا هذه المقولة.

أقول لأنني أنا أيضاً كاتب كبير. بالأمس ذهبنا نحن الأصدقاء الثلاثة إلى السينما وفي الصالة الخارجية وقف رجل يتكلم مع امرأة نظرت إلى السيدة الله... الله... نظرت إلى الرجل... حفظنا الله. وبدون أن أسمع ما قالته السيدة للرجل سمعت الرجل يقول لها.

ـ مع كل امتنان يا هانم.

لا أعرف كيف خرجت عن طوري ودنوت من الرجل وقلت له:

ـ جوش يا بهيم. يا غليظ.

التفت جميع الناس إليَّ، طأطأت رأسي، فقال لي أصدقائي.

ـ ما بك. هل جننت. قلت

ـ نعم جننت.

دخلنا الصالة. وبدأ عرض الفيلم كان عقلي مشدوداً إلى النساء الجميلات هذا ليس عيباً... أنا أغار جداً عندما أرى رجلاً غليظاً تتأبط ذراعه سيدة جميلة.

كل من أمسك قلماً يظن نفسه كاتباً كبيراً، وأنا لا أكذب فأنا أظن نفسي كذلك. لندع الجمال جانباً. فأنا لست مقبولاً حتى من قبل النساء

القبيحات مع أنني أعتبر نفسي كاتباً كبيراً. يقولون الأجاص الجيد يأكله صاحب النصيب. وفيما أنا أفكر بالنساء الجميلات وأنني كاتب كبير، سمعت حديث امرأتين جلستا في الصف الأمامي. كان الحديث عن الأدب ولكنهما كانتا تتحدثان بسخرية. كان الفيلم الذي دخلنا لمشاهدته خطأً، فيلماً محلياً وكاتب السيناريو كان كاتباً مشهوراً ولا داعي لذكر اسمه فهو محظوظ من النساء والجميلات. لكنني أستشيط غيظاً منه، علماً بأن رواياته تُطبع ست أو سبع مرات رغم ركاكة اللغة التركية وعدم قيمتها. إنه يكسب في كل رواية مبلغ ثلاثين أو أربعين ألف، ورغم أن النساء الجميلات مغرمات به... طق ومت أنت. لكنني أغار من هذا الرجل...

قالت إحدى النساء اللواتي كن أمامي وهن يتكلمن عن هذا الكاتب.

ـ آه كم أنا معجبة بقصص هذا الكاتب. قالت الأخرى:

ـ ليتني أراه أو أتعرف عليه في مكان ما. أنا أعشق هذا الرجل

ـ إنه كاتب ممتاز...

ـ هل هو أنيق؟

ـ لا أدري. لو عرَّفنا عليه أحد ما لتوقف قلبي عن الخفقان!

مددت رأسي، كانت السيدتان جميلتين ففكرت في مقلب لهن فهمست في أذن رفيقي قائلاً:

ـ أريدك عندما تخرج للاستراحة أن تدنو من هاتين السيدتين وكأنك لا تعرفني وتقول لهما (انظرا هذا هو صالح رجب) ودع الباقي علي.

ولكي لا أكشف اسم هذا الكاتب أقول لكم أن اسمه صالح رجب.

خرجنا إلى صالة الاستراحة. وقفت بجانب البوفيه وأنا جدِّيٌّ للغاية لكنني كنت أنظر من طرف عيني. أشار إلي الأصدقاء وقالوا:

ـ آ... آ... انظروا إنه صالح رجب.

ـ هذا هو...

ـ أي واحد؟

تلفتت الامرأتان نحوي، دنوت منهما بدون أن تشعرا بذلك وسمعت حديثهما.

ـ آه نيرمين انظري إنه هو!

ـ اصمتي، تكلمي بصوت منخفض حتى لا يسمعنا...

ـ انصحيني كيف سنتعرف عليه؟

ـ إنه قصير القامة جداً!

ـ وهو غير جميل أيضاً...

بدأت أسعل أهو... أهو!

كانتا تدخنان السجائر. وكان في فمي سيجارة أيضاً. وتصنعت أنني أود إشعال هذه السيجارة وأبحث عن عود ثقاب. دنوت قليلاً من أحد أصدقائي الذي أنهى تدخين سيجارته وقلت له:

ـ عفواً هل تسمح بأن تولع لي سيجارتي. وفيما هو يحاول إخراج علبة الكبريت أشرت إليه بحاجبي كي لا يعطيني الكبريت.

ـ مع الأسف يا سيدي...

وطبقاً لطريقة صالح رجب في قصصه. ولكي يكون هناك وسيلة للتعارف فإن الرجال غير ملزمين دوماً بإشعال سكائر النساء.

امتدت يدٌ جميلة. وولاعة صغيرة.

ـ أمان أفندم. أرجوك.

أخذت الولاعة من يد السيدة الجميلة وأشعلت سيجارتي.

ـ اعذريني يا سيدتي... فأنا قليل التدبير.

ـ رجاءً...

ـ أستغفر الله...

وبعد قليل من المجاملات قالت لي

ـ أشعر بشرف كبير لتقديم مثل هذه الخدمة البسيطة لكاتب كبير مثلكم يا سيدي.

ـ استغفر الله... هذه التفاته طيبة.

ـ نحن من المعجبات بك يا سيدي.

تصنعت الخجل وقلت:

ـ أشكركما... هذا لطف كبير منكما.

ـ أنا نرمين وصديقتي سُهيلة

صافحت السيدتين، وقلت لهما

ـ تشرفت كثيراً بمعرفتكما.

سيبدأ عرض الفيلم جلسنا في أماكننا وجرت بيننا بعض الأحاديث القصيرة. أرادت السيدتان أن لا تقطعا تلك العلاقة التي بدأت وبمجرد انتهاء العرض وفيما كنا نخرج جميعاً من الصالة قالت إحداهن:

ـ لدي رغبة كبيرة باللقاء بك...

ـ هذا شرف كبير لي.

ـ هل تتناول الشاي عندنا؟

ـ إذا قبلتما دعوتي. فستمنحاني شرفاً كبيراً، تفضلا إلى بيتي لنشرب الشاي.

تهامستا فيما بينهما وقالت إحداهن

ـ أنا لدي موعد. وأنا أعتذر عن قبول دعوتكم الكريمة.

وافترقت سهيلة...

أنا الآن في البيت مع نرمين. قالت إنها متزوجة منذ أربع سنوات وزوجها غليظ لا يفهم ولا يقدر احساساتها ولا موهبتها الشعرية. وأنها كانت تكتب الشعر سابقاً وهي مغرمة بالأدب وأضافت قائلة:

ـ آه هو نسخة طبق الأصل عن جاويد الذي ورد اسمه في الرواية (...)

ـ نعم...

ـ في أي وقت تكتبون؟

وأسئلة كثيرة.

وفي الصباح وأنا أخرج من بيت نرمين وبعد أن رُفِعَتْ الكلفة بيننا قالت لي:

ـ اهدني كتاباً مذيلاً بتوقيعك.

كتاب؟... كتاب؟

تظاهرت بعدم الفهم.

ـ عن أي كتاب تسألين...؟

ـ إحدى القصص التي كتبتها. لكي أتباهى أمام أصدقائي وأقول لهم

انظروا هذا كتاب موقع من صالح رجب.

- هل تقولين صالح رجب؟ من هو صالح رجب؟

- أمان لا تمزح

- إنني لا أمزح فأنا اسمي حسن.

- واي ألست أنت صالح رجب؟

- كلا

- لقد كنت أنا أيضاً أشك ولكن...

تلك المرأة ذات الأحاسيس الجميلة. تركتني وهي تتكلم. لكنني انتقمت. ولكن هل تعرفون ممن انتقمت. لقد انتقمت من النساء الجميلات اللواتي لم أحظ منهن بأية التفاتة. وللآلام التي سبَّبنها لأولئك الكتاب الكبار الحقيقيين.

○ ○ ○

مسألة الحمار

ماذا يفعل الرجل إذا كان بدون عمل. فهو ليس ذا صوت جميل حتى يصبح مطرباً. ولا يملك ساقين قويتين ليكون لاعب كرة قدم. إذن لم يبق أمامه فرصة سوى الكتابة. فهي لا تحتاج لأكثر من قلم يوضع بين أصابعك الثلاثة وبعدها تصبح كاتباً. جربت ذلك أولاً ولم أفلح لأن جميع الذين مسكوا الأقلام قبلي. لم يقبضوا سوى الرياح.

أما أنا فقد وضعت إعلاناً في أحدى الصحف قلت فيه «أستاذ رياضيات مستعد لإعطاء الدروس الخصوصية والتحضير للامتحان».

بعد أن وضعت هذا الإعلان شعرت بأنني رجل ذكي جداً. وأنتم إذا توفر لديكم نصيب من الذكاء فإنكم ستفهمون بسرعة. تعلمون أن الرياضيات ليست بالشيء الذي يسهل بلعه كالملح الإنكليزي أو الزيت الهندي. فهي مادة صعبة وعندما كنت طالباً كنت أرسب دائماً في مادة الرياضيات. وأنجح دوماً في السنة الثانية. ولذلك أظن أن تدريس مادة الرياضيات شيء سهلٌ بالنسبة لي.

كنت متأكداً من ظني هذا. فبدأت بمراجعة المادة. كان أول شخص جاءني بهلوان أصلع مصارع. مصارع من الذين يدهنون جسمهم ورؤوسهم بالزيت. بدأ يتفحصني من رأسي حتى أخمص قدمي وعندما لاحظ أنني أنتعل حذاء مهترئاً وألبس ألبسة بالية عرف أنني لا يمكن أن أكون أستاذاً للرياضيات أو حتى شبيهاً بأستاذ الرياضيات فقال لي:

ـ من الذي يُعطي دروس الحساب هنا؟

ـ محسوبكم.

ـ كم عمرك؟

ـ ثلاثون...

ـ هل أنت متزوج؟ أم عازب؟ أم أرمل؟

تضايقت كثيراً فقلت له:

ـ ماذا يهم؟ ولماذا تسأل كل هذه الأسئلة. إذا كنت تود أن تأخذ دروساً تفضل...

ـ أخي لماذا أنت متضايق لست أنا من سيأخذ الدرس بل ابنتي لقد غيرّت أربعة مدرسين حتى الآن لأنهم جميعاً كانوا يتحرشون بها...

ـ نحن لا نتصرف مثل هذا التصرف.

ولكي أستفتح اتفقنا على خمسين ليرة. وفي اليوم الثاني قصدت منزلهم كان الرجل وزوجته في البيت، قالت المرأة:

ـ ابنتنا صغيرة العمر. ولكن ما شاء الله إذا رأيتها تحسبها في العشرين.

تربية البنات صعبة في هذه الأيام... لكننا رعيناها كالوردة.

قال السيد نصيب وهو والدها:

ـ أنا أعيش في هذه الدنيا بشرف. ابنتي عاقلة. ولكن أستاذها سيء وكنت سأبتلي به... أرجو أن تبدأ بتدريس البنت.

ـ على رأسي!

نادى الرجل ابنته وكأنه ينشد نشيداً عسكرياً.

ـ بيرا ا ا ي.

دخلت الفتاة... الله الله كانت تتمختر في مشيتها. الشعر مصبوغ والأظافر مطلية (بالمانيكير).

ـ قلت أهلاً وسهلاً.

ـ قالت أهلاً وسهلاً.

جلست أمامي وهي تضع رجلاً على رجل. فأدرت رأسي خجلاً وسألتها.

ـ في أي صف أنت؟

ـ أنا في الصف الثاني إعدادي... راسبة في الرياضيات.

ـ قال والدها.

ـ (بيرايه) ما هو السؤال الذي يسألك عنه الأستاذ دوماً وأنت لا تعرفينه

ـ قالت مسألة الحمار.

التفتت بيرايه إلي وقالت:

ـ إنه أستاذ عنيد ثلاث سنوات وهو يسألني عن مسألة الحمار!

فكروا بهذا الإنسان الذي لم يتعلم مسألة الحمار طيلة ثلاث سنوات لابد وأن يكون حماراً أليس كذلك؟

قال السيد نصيب.

ـ علِّمها أيها الشاب مسألة الحمار.

دخلنا غرفة بيرايه التي قالت عنها أمها أنها رعتها كالوردة فبادرتني قائلة:

ـ دعك من الرياضيات فأنا سأصبح نجمة سينمائية. ولكن علِّمني مسألة الحمار لأتخلص من الضغط الذي يمارسه علي والدي.

العمى يضرب مسألة الحمار فأنا رسبت سنة من أجلها.

ـ أحضري الكتاب.

قلبت شفتيها. وقالت:

ـ كتاب؟

بحثت فترة بين المجلات المصورة والقصص ووقفت:

ـ أمان... لم أجده.

كنت أسأل عن الكتاب لكي أتعلم منه بعض الأشياء ولكن بيرايه أنقذتني قائلة:

ـ ماذا تقول هل يمكن أن أصبح نجمة سينمائية؟ قلت لها:

ـ تصبحين.

كان الدرس الأول يدور حول السينما لكنني من أجل الدرس الثاني حفظت مسألة الحمار، ودخلنا غرفة بيرايه فدَسَّت المفتاح في ثقب الباب فسألتها.

ـ ماذا تفعلين فأجابتني:

ـ عند أبي عادة سيئة فهو يسترق النظر دائماً. والأساتذة الذين جاءوا قبلك كان سيميتهم من الضرب لولا الجيران الذين كانوا يخلصونهم بصعوبة من بين يديه.

بدأت رجلاي ترتجفان. وبدأت أعطيها الدرس بمنتهى الجدّية.

ـ دَرْسُنا هو مسألة الحمار الضلع القائم في مثلث قائم الزاوية...

في الدرس الخامس أو السادس جاءت بيرايه وجلست في حضني فهمست في أذنها.

ـ ماذا لو فتح أبوك الباب ودخل!

ـ هو لا يفتح الباب بل يتنصت فقط. قل كل ما تريده همساً ولكن ارفع صوتك عندما تفهمني مسألة الحمار... هل تحبني؟

بدأنا الحديث كالتالي:

أنا (همساً) أحبك (عالياً) في مثلث قائم الزاوية (بصوت أعلى) المربعات المرسومة على ضلعيه القائمين (بعياط) مجموع مساحتهما (همساً) أو م م ب.

طبعاً هذه قبلة وليست إملاء (بصراخ) تساوي المربع المرسوم على الوتر بيريه ـ (همساً) أنت لا تحبني (بسرعة) في مثلث قائم الزاوية.

(همساً) قبلتك باردة وليست كقبلة العاشقين. أقول لها (همساً) والله أحب... المثلث. يساوي مجموع المساحات أو م م ب.

لم أرَ في حياتي مثل هذه الفتاة. فلو لم تكن مسألة الحمار هي السبب لكنت جئت إلى الدنيا كالحمار ورحلت عنها كالحمار أيضاً.

استمرت الدروس ثلاثة أشهر. في الأسابيع الأولى كانت كل الدروس تنصب على المثلث. في أحد الأيام كان البيت يغص بالضيوف سألني السيد نصيب أمام الضيوف.

ـ ما هذا الحمار الذي لا تنتهي قضيته.

فأجابته بيريه:

ـ ليس بالأمر السهل يا أبي. طبعاً صعب جداً.

كانت بيريه تعرف جميع نجوم السينما رجالاً ونساءً وتعرف قصص حبهم وتفاصيل حياتهم. لكنها لا تستطيع أن تتعلم مسألة الحمار بشكل من الأشكال.

أجابها السيد نصيب:

ـ طبعاً سهلة لقد تعلمتها أنا.

من المفهوم أن السيد نصيب وهو يتنصت علينا طيلة هذه الأشهر من خلف الباب قد تعلم مسألة الحمار. وقد كررها أمام الضيوف على الشكل التالي:

ـ في أي مثلث قائم الزاوية. أحبك والله. على ضلعه القائم أ و م م ب المرسوم. تكلمي بصوت منخفض حتى لا يسمع أبوك. مجموع المربعات. أحبك جداً. المرسوم على الوتر. حبيبتي يساوي مجموع المربعات.

لقد فهم الضيوف وبدأوا يضحكون التفت إليَّ نصيب بيك وسألني.

ـ كيف وجدتني هل تعلمت مسألة الحمار؟ فقلت له:

ـ لقد تعلمتها أكثر من اللازم.

لو استمرت مسألة الحمار منذ ذلك اليوم حتى الآن، لكنت أمام أمرين، إما أن أتحمل الضرب كما يتحمله الحمار حتى يصل إلى الماء، أو تبدأ بيني وبين يديه مسألة الحمار الصغير.

O O O

مع نفسي

في الماضي كنت أضحك كثيراً من الناس الذين يتكلمون مع أنفسهم سواء أكانوا في الطريق أو في السوق أو في الحافلات أو الباخرة. أضحك عليهم وأشفق عليهم بوقت واحد. وكنت كلما صادفت واحداً منهم أترك كل شيء وأتبعه لأراقب حركات يديه وفمه وعينيه وكأن أمامه إنساناً سيتحدث إليه، كان هذا الأمر يشد انتباهي كثيراً.

الحواجب تعلو وتنخفض. الشفاه تتحرك وابتسامات بين الحين والآخر. إذا نظرت إليهم فهم يتأففون كثيراً ثم يسرعون في مشيتهم وبعدها يبطئون...

أضحك من هؤلاء المساكين لكنها ضحكة مؤلمة. فمن المؤكد أنهم أناس أصابهم الهم وقد يكون أحدهم أرغم على إلقاء خطاب أو أن أحدهم تعرض لوضع سيء.

البارحة، خرجت من إدارة الجريدة منهكاً للغاية وبحاجة إلى النوم. وكم كنت أتمنى لو أن بواب العمارة يضربني بعصاه التي ينفض بها السجاد عندما يعلقه على حبل الغسيل كي أصحو. كان الجو ربيعياً منعشاً فقلت في نفسي لأركب سيارة السرفيس، فاعترضني أحدهم قائلاً:

ـ لا يا عزيزي. لا داعي لركوب سيارة السرفيس في مثل هذا الجو البديع ولا أن تخسر ليرتين.

فهمت أنها خواطر داخلية لأنني التفت حولي لأرى من المتكلم فلم أجد أحداً.

ـ فقلت لنفسي هذا صحيح سوف لن أركب الحافلة.

ـ الحافلات مزدحمة في هذه الساعة. المشي أفضل!

ـ معك حق. فالجو بديع. وهذا لطف منك لأنك لفت نظري للمشي.

ـ طبعاً، انظر إلى الناس. وهم يضحكون ويتسامرون.

ـ هذا صحيح فلقد نسيت الدنيا تماماً.

ـ ألست إنساناً. فكر بالأيام الباقية من عمرك يا أهبل... اذهب إلى السينما إلى المسرح إلى الحفلات الموسيقية إلى الكازينو إلى الهواء الطلق إلى النزهات، قم بسياحة!

في هذه الأثناء كان أحدهم يصيح من خلفي.

«هي هي يا أهبل!... انظر حولك عندما تمشي. لو دهستُك لحسبوك علي إنساناً».

أدرت رأسي. فإذا بالرجل الذي ينتهرني يقود سيارة خصوصية حمراء. تجلس إلى جانبه فتاة شقراء جميلة جداً قالت وهي تضحك.

«لعل هذا الرجل به مسٌّ من الجنون ألا ترى كيف يتكلم مع نفسه».

ومرَّت السيارة بجانبي مسرعة وهي تجتاز الشارع.

ـ هل رأيت؟ أنت حمار في قالب إنسان. يقود عربة وبجانبه امرأة جميلة غضَّة كلحم عجل عمره ستة أشهر، واليوم ليس يوم عطلة أو عيد.

ـ إنك تتحامل علي كثيراً. فأنا لست مغفلاً إلى هذه الدرجة. ولا شك بأنني أعرف أشياء كثيرة.

ـ ما هو الشيء الذي تعرفه؟ كلام فارغ... ستجهد في العمل وعندما سترتاح في أحد الأيام ستقول... أووه... من المؤكد أنك مغفل لا يوجد لك مثيل في هذه الأيام.

ـ يا هو أنت تتكلم مثل هذا الكلام! ولكنني إذا لم أعمل، كيف أسدد

أجار البيت. والطعام. وكيف أشتري ألبسةً جديدة لي وللأولاد كل عامين. هناك مصاريف كثيرة...

ـ أليس هناك طريق آخر لتأمين هذه المصاريف؟ انظر حولك وستعرف! وفيما كنت أصعد بين الزحام إلى «قره كوي» وإذ بأحدهم يقول لي (دهست يا زباله).

قالت له المرأة التي بجانبه:

دع هذا المسكين ألا ترى أنه يكلم نفسه كالمجانين.

ـ الحق معهم. فهذه الشتائم تليق بك... انحن قليلاً... لا تخف سوف لا تنكسر. لماذا أنت مستمر هكذا... من يهتم بك أيها المغفل؟ لقد مضى الكثير من هذه الدنيا. وإذا انتظرت كثيراً فسيأتي الصباح... فتش عن مخرج لهذا الوضع الذي أنت فيه.

ـ أليس عيباً بعد هذا العمر؟

ـ لمَ العيب. من سيعيب على الآخر. كل من يموت في هذه الدنيا ولديه بقية من الشرف يكون ذلك سبباً لنجاته. أنتَ تعرض نفسك للمتاعب طوال عمرك. لماذا تتقمص شخصية رجل شريف؟

ولماذا تقوم بهذا التمثيل. ألا تكذب أبداً؟

ـ في بعض الأحيان أمام والدي. وأولادي. كنت أكذب لكي لا أحزنهم فوالدي قد تجاوز الثمانين وهو في أيامه الأخيرة. أدخل عليه بوجه ضاحك وأقول له «لدي مال كثير وعملي ممتاز كما أنني أضع أموالي في المصرف» وأحاول أن أفرحه بهذه الأقوال. وأفرح الأولاد أيضاً.

ـ الكذب هو كذب مهما كان شكله. لذلك يجب تبديل هذه الطريقة.

ـ إغرب عن وجهي... لا تورطني!

ـ أنت من صنف من الحيوانات المنقرضة من العصر الـ (باليون تولوثتك)

ـ أنت حيوان. وحمار أيضاً. ومنحط ورزيل وحقير وقليل الشرف.

أمسكني أحدهم من ذراعي وأخذني إلى مخفر الشرطة وسلمني لرئيس المخفر وقال له.

ـ شتمني أمام كل الناس وأنا أسير في الشارع وهؤلاء هم الشهود.

ـ لماذا شتمته.

ـ قال لي رزيل ومنحط وواطي وقليل الشرف.

ـ هل قلت ذلك؟

ـ سيدي أنا لا أعرف هذا الرجل وهذه أول مرة أشاهده فيها. نعم لقد قلت هذا الكلام. لكنني لم أقله له.

ـ لمن قلته إذن؟

ـ أبداً. قلته لنفسي... كنت أتكلم مع نفسي وأنا أسير في الشارع.

ـ هل أنت مجنون؟

طأطأت رأسي ولم أجب.

بعد ذلك اليوم كانوا دائماً يقتادونني إلى مخفر الشرطة. وأصبحت معروفاً من قبل جميع الشرطة وكانوا يضحكون لدى رؤيتهم لي في القسم ويقولون.

ـ أو أو... لقد جاء صاحبنا.

يا للغرابة. بالأمس كنت أضحك عندما أشاهد أحداً في الشارع يكلم نفسه.

○ ○ ○

هموم اللحّام

عندما يكون منزعجاً يخرج إلى الشارع دون أن يعرف إلى أين يتجه. يوم الأحد الماضي أراد أن يفرِّح نفسه بشرب فنجان قهوة. لكنه تضايق كثيراً حتى أنه لم يشرب فنجان القهوة.

لقد فاجأته زوجته قائلةً:

ـ منذ أسبوع ونحن نقرع الطبول ونقول لا يوجد لدينا قهوة وأنت لا تشتري.

لم يعط جواباً لما قالته الزوجة فقال:

ـ اليوم أحد على الأقل لأستحم!

ـ لا تستطيع فالغار مقطوع منذ مدة.

قال لا حول ولا قوة إلا بالله وما كاد يمسك بالصحيفة حتى جاء صاحب البيت يطلب الآجار فقد مضى عشرة أيام على بداية الشهر. تضايق كثيراً وخرج من البيت وبدأ يكلِّمُ نفسه.

ـ رحماك يا ربي كل هذه السنوات وأنا ألْعَقُ الحبر في المدارس. ستة عشر عاماً وأنا أدرس حتى اهترأت أكواعي. دراسة مستمرة... وبعد ذلك عَمَلٌ في الشارع وعملٌ في البيت. كل هذا وليس بمقدوري الذهاب أكثر من مرة في الأسبوع إلى السينما أو المسرح ولا أستطيع شراء لباسٍ سوى مرة في السنة. وفوق كل ذلك يقطعون عني الكهرباء والغاز لأني لم أستطع دفع الفواتير ثم يأتي صاحب البيت ليملي عليّ دروساً في الشرف والأخلاق لأني لم أدفع أجرته في حينه.

وفيما هو يكلم نفسه صادفه اللحّام سليم وقال له:

ـ مرحباً ممتاز بك!...

ـ مرحباً سيد سليم كيف حالك...؟

ـ لا تسأل يا سيد ممتاز الوضع سيئ والهموم كثيرة يا أخي... قلت في نفسي «يوجد من يعاني هموماً أكثر مني».

ـ هل لأنك لم تستطع دفع آجار البيت؟

ـ لا الحمد لله فالبيت ملكي.

ـ أليس لديك وقود للشتاء؟

ـ كلا يا عزيزي. لا شيء من هذا القبيل والحمد لله. الموضوع أنني أملك عمارة سكنية في (عثمان بي). وكأنني لم أكتف بالعذاب الذي ذقته من المستأجرين. فسمعت كلام الشيطان وباشرت بعمارة أخرى في شارع أتاتورك . ويا ليتني لم أقم بذلك فالتعامل مع العمال صعب للغاية. فهم لا يفهمون عليك ما تريد. الحمد لله. انتهينا من تشييد العمارة. لكنني أحب دوماً أن أطلي بابها باللون الأخضر أوصيت العمال بذلك فقاموا بطلائه بلون أخضر المقابر... طبعاً هذا شيء سليم لا داعي للإزعاج من أجل ذلك.

ـ لا تقل ذلك يا سيد ممتاز. أنا أملك ثلاث سيارات. قلت لسائق أحداهن «يا بني لا تضع طائراً على الزجاج الخلفي... لا أدري فأنا لا أعلم إذا كان تعليق الطائر أمراً مذموماً بالنسبة للميت أو بالنسبة للقاتل. لم يسمع الكلام وأصر على تعليق الطائر.

ـ إنك تضخم الأمور كثيراً.

ـ أنت لا تعرف يا ممتاز بك... فالهموم ليست كلها متشابهة... أنا لدي في جزيرة الأميرات أيضاً...

لم يستطع الاحتمال أكثر. فودَّعه قائلاً:

ـ عذراً لدي موعد مع شخص... إلى اللقاء.

كان يمشي وهو يُكلِّمُ مع نفسه.

ـ أنت لا تفلح سوى بالدراسة ستة عشر عاماً وأنت تدرس (وبعدين)؟

ـ مرحباً ممتاز بك.

كان ذلك الشخص هو البقَّال نوري!

ـ مرحباً سيد نوري. كيف حالك.

ـ آه... آه... لا تسلني عن حال الناس في هذه الأيام. لا تسلني ولا أريد أن أتكلم. لقد زوجت ابنتي الصغيرة منذ ثلاثة أشهر! عندما زوجت الأولى أعطيت صهري رأسمالاً قدره خمسون ألف ليرة. العريس الثاني كان طبيباً. أعطيته أيضاً تسعين ألف ليرة وفتحت له عيادة وسط (بي أوغلوا...) جيد جاء دور الثالثة.

ـ هل طلبَ منك مائة ألف.

ـ مبروك عليه ما طلبه لقد أهديته ليس مائة ألف بل مائتي ألف لكنه جعلنا أضحوكة أمام الناس فقد أهدى ابنتنا قطعة قماش زرقاء بمناسبة رأس السنة. يعني هل يوجد رزالة بهذا القدْر.

ـ لا أفهم لماذا تعتبره رزالة.

ـ يا هو الموضة هذه السنة هي البنفسجي فكيف يمكن لابنتي أن تلبس الأزرق. صدقني لقد كرهت نفسي. انتظر لم أنته بعد هناك موضوع ثانٍ... قالت لي ابنتي الصغيرة.

ـ اعذرني يا نوري بك فأنا على موعد مع أحد أصدقائي وهو ينتظرني إلى اللقاء.

كان يسير وهو يكلم نفسه.

ـ الله لا يعطيك العافية... ستة عشر عاماً ورأسك ينفجر...

ـ أووو ممتاز بك. أين أنت؟

ـ مرحباً مصباح أنت كيف حالك؟

ـ آه لا تسلني وتفتح جروحي! لم يبق طعم لهذه الحياة. لدينا عمارة في حي (بيازيد) ولأن الشقق كلها مؤلفة من أربع غرف فهي ضيقة بالنسبة لنا. إضافة إلى ذلك ابنتي تذهب إلى المعهد الفرنسي فاضطررت إلى استئجار شقة لها في (الحربيه) شقة كبيرة وقريبة من المعهد بنفس الوقت.

ـ هل آجار الشقة غالٍ؟

ـ لا ليست غالية. فأنا أمدُّ رجلي على قدر بساطي، فالموضوع ليس الآجار... المرحاض جبهته شمالية. والشباك رغم أنه محكم إلا أنه يُسرب بعض الهواء البارد في الشتاء ويزعج الإنسان. كذا مرة قلت لصاحب البيت يا أخي...

ـ اسمح لي يا مصباح لدي عمل وأنا في عجلة من أمري.

كان يسير ويكلم نفسه.

ـ فقدت نور عينيك وأنت تقرأ كل هذه السنين.

ـ مرحباً ممتاز بك!

ـ قال مرحباً واستمر في سيره.

لكن بائع الحليب رجب استوقفه قائلاً:

- والله.. روحي وصلت إلى أنفي. الموت أفضل لي. لا طعم للحياة...
لم يدعه ممتاز بك يكمل الحديث بل فتح فاه وأغمض عينيه وهو يصيح:

- ولك الله يلعن روحك... والثاني الله يلعن حياته. ويلعن السبعين ألف ليرة التي أعطاها لصهره ويلعن الثوب الأزرق الذي لم تلبسه ابنته.

كان جميع المارة يقفون وينظرون إليه.

- ولك الله يلعن سياراتك الثلاثة. والعمارة التي بنيتها والتي ستبنيها ويلعن المعهد الفرنسي الذي تذهب إليه ابنتك وألف لعنة على المرحاض الذي تطل نافذته على الجهة الشمالية.

ممتاز بك فتح فاه وأغمض عينيه. تدخلت الشرطة وسط هذا الحشد فأنزل السيد رجب وعاء الحليب من على كتفه وقال للشرطة.

- أنا أَدَّعي عليه لأنه حقَرَني علناً أمام جميع هؤلاء الحضور.

وفي المحكمة قال بائع الحليب للقاضي.

- كنت أظن أن ممتاز بك رجل طيب وكنت أريد أن أستشيره في موضوع. وهو أن لدي مبلغ أربعين ألف ليرة هل أجعلها حوالات أم أشتري بها ذهباً وأخبئه فالأسعار ترتفع من يوم لآخر.

وقبل أن أسأله بدأ بإلقاء الشتائم أمام كل هؤلاء الناس مع أنني كنت أظنه مثقفاً ويقرأ ويكتب وذا عقل راجح.

بدأ ممتاز بك بالكلام قبل أن يسأله القاضي.

- ولك الله يلعن المثقفين والذين يقرأون ويكتبون وذوي العقول الراجحة!

أفاد كل الشهود بأن السيد ممتاز هو من الناس الأكابر وهو لطيف جداً. لكنه حقّر المدعي وقال له كلاماً لا يقال.

أمام هذا الوضع أمر القاضي بأن يوضع ممتاز بك عشرة أيام تحت المراقبة في الطب العدلي. لكنه كان لا يتوقف عن التكلم مع نفسه وهو يمشي جيئة وذهاباً في غرفته.

ـ ولك ستة عشر عاماً وأنا ألعق الحبر. أطفأت نور عيني، رأسي كاد ينفجر من الدراسة. أكواعي اهترأت وبعدين...

الله يلعن مرحاضك وشبّاكه الشمالي...

○ ○ ○

صحيفةٌ تُقْرأْ

يقع مقهى علي بين باب مولانا وباب سيلفري بجانب مسجد أبوقر خاتون. أنا أحب علياً. وأنا عندما أقول أحب السيد علي فلا تستغربوا ذلك فإن طلع أو نزل هو أخونا الكبير. علي هذا كان يبيع المخدرات قرب سور المدينة القديم لم يكن اسم الهيروين معروفاً في ذلك الزمان وكنت طفلاً في ذلك الوقت وسمعت «أن علياً ضرب أحدهم وسجن عشر سنوات».

كان قاتلاً ولكن لا أحد يخاف منه. الجميع يحبونه. أنا أتكلم عنه بكل هذه التفاصيل لأنكم ستسألونني «لماذا تجلس في مقهى علي ولماذا تجلب لنفسك الشبهة».

لقد انتقلنا إلى هذه المحلّه منذ خمسة عشر عاماً وأنا اذهب إلى مقهاها بين الحين والآخر.

منذ مدة كان يوم أحد دخلت إلى المقهى كان الجميع غارقين في نقاش عميق لدرجة أنهم لم ينتبهوا لدخولي.

كان في يدي الجابي عارف جريدة يقرأوها.

«هناك تصور لعقد اجتماع يدور حول تنزيل الآجارات».

صاح الإسكافي توفيق:

ـ ليعش الديمقراطيون.

سأله السقا رجب وهو مخالف بطبيعته منذ أن ولدته أمه.

ـ ماذا جرى. حتى تقول ليعيش الديمقراطيون؟

أجابه توفيق:

ـ ماذا تريد أكثر من ذلك إنهم سيخفضون الايجارات.

جذب السقا رجب السيد توفيق ونطحه في رأسه قائلاً:

ـ خذ هذه لك.

تدخل أحدهم قائلاً:

ـ يا رجب هذا مكتوب في الجريدة.

ـ تقول في الجريدة. أنت لا تفهم شيئاً أبداً... الواضح من كتابة الجريدة أنهم لن يخفّضوا الايجارات.

انزعج علي من هذا الكلام وقال:

ـ يا عارف اقرأ هذه الجملة مرة ثانية.

أعاد الجابي عارف قراءة عناوين الأعمدة الخمسة في الصفحة الأولى «هناك تصور لعقد اجتماع يدور حول تنزيل الايجارات».

وجد كلٌ من رجب وعارف أنهما على حق فصاح أحدهم « كيف» والثاني قال أرأيت.

حك علي رقبته وقال:

ـ هذه لغة تقلب المعدة فلو لم يكن هناك كلمة «يدور» لفهمنا الموضوع أكثر.

كان أكثر من يجيد القراءة في المقهى هو الجابي عارف لم يتدخل في هذا النقاش ولم ينحز إلى أي طرف. تدَّخل مأمور الإجراء المتقاعد إحسان وقال:

- معنى «يدور» أن الايجار سيرتفع.

قال توفيق غاضباً:

- أكيد إن الايجارات سترتفع.

قال رجب لتوفيق:

- هل تفهم أنت معنى كلمة (يدور) أكثر من العم إحسان!

قال إحسان بك وقد أخذته الجرأة:

- الله يلعن هذه الأيام. لم يعد هناك أخلاق في هذه البلاد فلا أحد يعرف معنى كلمة (يدور) ولا معنى الدوائر. تدخل الفحام خليل في الحديث وهو ينشف يديه بالمنشفة.

- اعذرني يا عم إحسان فنحن أناس جهلة. ولكن إحدى الجرائد كتبت كلمة (ينور) أو (يمور) لا أدري ولكن شيئاً يشبه تلك الكلمة وعلى أثر ذلك ارتفع سعر الفحم الحجري. أجابه علي بحدَّة قائلاً:

- اخرس أنت. ماذا تفهم أنت من اللغة يا مغفل. والتفت إلى السيد إحسان وقال له لقد فهمنا كلمة «يدور». ولكن هنالك كلام آخر اقرأه يا عارف.

قرأ الجابي:

«هناك تصور لعقد اجتماع يدور حول تنزيل الايجارات».

سأل محمد الزنجي:

- ما معنى كلمة عقد؟

بلع السيد إحسان ريقه وقال:

- معنى كلمة عقد... هو... يعني... ألا ترى أنه يوجد كلمة تصور.

يعني من أجل الايجارات.

أجاب علي قائلاً

ـ لقد فهمتها «العقد» يعني أن هناك تنزيلاً في الايجارات.

فأصلح السيد إحسان ما قاله علي.

ـ الله يرحم والديك. الأجار أولاً يدور ثم يكتب القصة.

تدخل الفحام خليل.

ـ أنا لم أفهم شيئاً حتى الآن هل ستخفض الايجارات أم لا.

انقسم المجتمعون في القهوة إلى فريقين كل يحاول أن يفسر الأحداث على هواه. في هذه الأثناء شاهدني علي صاحب المقهى وقال لي:

ـ لقد أرسلك الله لنا رحمة اقرأ لنا هذه وأفهمنا.

ثم التفت إلى الموجودين في المقهى وقال لهم:

ـ حسن بك سيشرح لنا الموضوع وعندها ستعرفون فائدة المثقفين.

أمسكت الجريدة في يدي وقرأت بصوت عال الأحداث المكتوبة تحت العنوان الرئيسي.

«بعد مراجعة القرارات المتخذة لتحديد الايجارات لوحظ أن آجار البيوت المشمولة بالقانون رقم ٤٨٩٧٣ قد بدأت تتزايد بشكل ملفت للنظر... الخ».

ـ انتبه إنه يقول إلى آخر. ألم أقل لكم!

كان جميع من في المقهى ينظرون إلى فمي لكي أقول لهم أن الايجارات ستنخفض أم لا. في الوقت الذي لم استطع أنا أن أفهم ما هو مكتوب في الجريدة. كان أصعب امتحان أواجهه في حياتي. فلا يجوز أن أقول لهم لم أفهم. وإذا قلت لهم فهمت فسيطلبون مني أن أفهمهم.

لذلك تحدثت بإسهاب أن اللغة التركية التي تكتب في الصحف يحشر بينها كلام كثير غير مفهوم وقلت أيضاً:

ـ يا إخواني الصحيفة تقول البيوت المشمولة بالقانون الفلاني والخانات والمباني إلى آخره أفهمتهم ماذا يعني الخ وأن هذا في حالة التصور فالعقد يجب أن يكون.

بعد أن قلت هذا الكلام وفهمت لسان حال الناس الذين كانوا ينظرون إلى فمي قلت لهم:

ـ مفهوم. أليس كذلك. كل شيء واضح. ويجب أن يكون حماراً من لا يفهم هذا الكلام.

انفعل علي وأجاب:

ـ صحيح الآن فهمت.

دفعني الفضول لكي أعرف ماذا فهم علي. فقلت له:

ـ ماذا فهمت يا أخي علي.

فقال لي:

ـ لقد كان والدك المرحوم على حق عندما قال:

«إذا صار الحمير بني أدمين فإن ابني سيكون بني آدم».

○ ○ ○

سبيل حسن بابا

تضايقت عندما وجدت بطاقة الدعوة على الطاولة وقلت لابد وأنني مدعو لحفلة عرس ويتوجب علي شراء هدية ولكنني عندما فتحت الدعوة وجدت ما يلي:

«نرجو تشريفكم لحضور حفل افتتاح (سبيل) حسن بابا بعد إجراء الصيانة اللازمة ودخوله إلى الخدمة. والكائن في منطقة هور هور حارة سليمة خاتون.

... التاريخ»

ولأنني لم أر في حياتي مثل هذا الحفل ذهبت يوم الاحتفال إلى المكان المحدد في البطاقة. كان المكان يغصّ بالأشخاص المهمين الذين حضروا من أنقره والعاديين الذين جاءوا لمشاهدة هذا الاحتفال. المكان مزدحم بالأشخاص المعروفين وسياراتهم. وجاء بعدهم الأقل شهرة. ثم الأقل معرفة وبعدهم الصحفيون والكتاب وأخيراً الناس المعروفون والذين يحاولون أن يكونوا معروفين أكثر.

تسللت وسط الزحام ودنوت من (السبيل) ـ كان السبيل عبارة عن حجر ذي أربع زوايا مغطى بصفائح التوتياء ووسط هذا الحجر الضخم مزراب وحنفية من النحاس ولوحة كُتِبَ عليها بالأحرف العربية ما يلي:

وجعلنا من الماء كلَّ شيء حي.

وسقاهم ربهم شراباً طهوراً.

وكان تحت هذه الكتابة شعر باللغة التركية مؤلف من أربعة أبيات:

يكفيك شرب كوبين من الماء ورغيف

البابا حسن هو الذي بنى هذا السبيل

وعبر التاريخ قال الشاعر المدّاح

ستموت حتماً إذا نسيت شرب الماء

كان أسفل هذه الكتابة لوحة من المرمر الأبيض حفر عليها بالأحرف التركية المطلية بماء الذهب الكتابة التالية:

«تم افتتاح سبيل حسن المشهور بتاريخ. في عهد رئيس الوزراء... ووزير الأشغال العامة... كما تمت صيانته في عهد المحافظ...».

صعد فوق السبيل أحد التاريخيين وألقى خطبة قصيرة تكلم فيها عن تاريخ هذا السبيل وأنه أول سبيل تم اكتشافه أو معرفته كما تكلم عن الشخص الذي بناه ولمحة تاريخية عن حياته وهو بابا حسن. ثم ترك المجال لأحد أدبائنا المعروفين الذي تحدث طوال ساعتين بإيجاز! عن حياة الشاعر المدّاح الذي جاء ذكره في الكتابة الموجودة على السبيل. ثم صعد أحد السياسيين المعروفين وبدأ خطبة وللأسف لم تكن آلة التسجيل معي لكي أسجّل كلامه. كما أنني لم أستطع أن أدون شيئاً لأنه كان يتكلم بسرعة. وستقرؤون ما كتبته محاولاً تقليد خطاب ذلك السياسي ولكنكم ستدركون الفرق بين ما كتبته وبين الخطاب لأن ما كتبته أكثر جدية. مع أنني حاولت كثيراً أن لا أكون

أكثر منه جدية ولكنني لم افلح.

الخطاب الذي استمعنا إليه كان تقريباً كما يلي:

ـ أيها المواطنون لا أريد إضاعة وقتكم بكلام لا لزوم له. نحن أعمالنا تدُل علينا ونحن لا نتكلم إلا بالأرقام فعندما استلمنا الحكم في هذه البلاد كانت حصيلتنا من الأمطار تقدر بـ ٢٠٧ آلاف و ٣١٠ صفيحة ونتيجة للبرامج التي وضعت من قبلنا استطعنا مضاعفة هذه الكمية مائة مرة. فبلغت الهطولات السنة الماضية مقدار ١ مليون و٤٨٩ ألفاً و١١٣ دَلْواً وبهذا نكون قد ضاعفنا الحصيلة إلى مائة متر. وسوف تزداد الكمية أيضاً وستكون في العام القادم ٢ مليون و٤٩١ ألف و٣١٦ ونصف سطل. المعارضة تقول عن (الدلاءْ) أنها مثقوبة، كلا... عندما استلمنا الحكم من المعارضة استعملنا ٤١٨ طن من مادة اللحِامْ و٩٠٥ قوالب نشادر و٧١٩ ألف ليتر من روح الملح. وذلك لإصلاح الدلاء المثقوبة وعددها ٩٧ ألفاً و١٩٨.

زمن الإدارة السابقة كان عدد السُبل ٧١٥ ألفاً و١٠٨ فقط كان ١١٩٠٣٣ ألف من هذه السبل بدون صنابير و٩٤ ألف سبيل سرقت منه صفائح التوتياء و٢٠٥ آلاف سبيل لا يوجد فيها ماء.

لقد قمنا بإصلاح جميع هذه السبل كما قمنا بإنشاء ٩٧٩ ألف و٢٦٦ سبيلاً جديداً فإذا أضيف هذا العدد إلى السبل القديمة التي أنشأناها يكون الإجمالي الموجود ٩١٠ آلاف و٦٦ سبيلاً ونخطط لأن يكون لدينا بعد ثلاث سنوات ٣١ مليون سبيل.

أيها المواطنون

هذا السبيل الذي نحتفل بافتتاحه اليوم كلف إصلاحه ٢٩٧ ألف

كيس من الإسمنت و٤٠٩ آلاف عربة بحص و ٢٩٤ ألف عربة رمل كما عمل فيه ٤٧٧ ألف شخص ليل نهار لمدة ستة أشهر وثلاثة أسابيع وأربعة أيام وثلاث ساعات ونصف ولا يسعني إلا أن أقول للذين يمكن أن يعترضوا على هذه الأرقام أنها أرقام دقيقة جداً. أما بالنسبة للجدوى الاقتصادية لهذا السبيل. فهي كالتالي. هذا السبيل سوف يستجر منه يومياً ٧٥٦ ألف تنكة ماء وهذه النسبة ستزيد خمسة بالمائة كل عام. ٢١٦ ألف... ١٧٤... ٢٠ مليون ٥١٩ ألف ٣٨٤... ٤٤٦ مليار ١٩٧ مليون ٣٨٤ ألف ٥٣٥.. ٧٠٦ تريليون».

لم أستطع تسجيل هذه الأرقام أما هذا بالذات الذي تكلم عنه وأنهى حديثه قائلاً:

ـ أترك الحديث الآن للسيد ونزل من على المنصة.

صفَّق الحاضرون المذهولون من هذه الأرقام ولسان حالهم يقول أمان لقد نجونا.

بدأ الخطيب الجديد خطابه:

ـ أيها المواطنون. السبيل الذي نحتفل بافتتاحه اليوم سيغتسل المواطنون من مياهه المباركة وسيطفئون ظمأهم كأنهم يشربون من نهر الكوثر.

بعد ذلك الخطاب المثير قام كبير وجهاء تلك المحلَّة وأخرج مقصاً من جيبه قص فيه الشريط الحريري وفتح الحنفية. وبدأت أصوات الهواء تخرج من الحنفية.

ـ هر... هرر... هر... هررررر! كانت الحنفية تصدر أصواتاً تشبه حشرجة إنسان يختنق. كان الهواء يخرج من الحنفية أما الماء فلا أثر له.

تحرك أحد المسؤولين الأقوياء بانزعاج وأمسك بالحنفية بقوة وأدارها يميناً وشمالاً ليخرج الماء ولكن رغم هذا الجهد لم يصدر عن الحنفية المسكينة سوى أصوات الهواء.

نظر كل واحد في وجه الآخر، وخيبة الأمل بادية على وجوههم وبدأ الناس يتهامسون. بدأت الهواتف تعمل واتضح لنا أن هناك أموراً كثيرة اختلطت ببعضها فالخط الرئيسي مهترئ ومستوى الماء في السدود منخفض بسبب شح الأمطار. والخط الأساسي المغذي للخط الرئيسي قد انفجر. للإطفائية فجاءت سياراتها المعبأة من مياه البحر وأفرغت خراطيمها جرى الاتصال على فرقة الأطفاء في خزان السبيل وبدأت المياه تتدفق من الحنفية بغزارة.

○ ○ ○

اسم صحيفة

في زمن السرعة لم تعد عيوننا ترى قانون الصحافة ولا قانون الجزاء وكان البعض يقول «لا تفعلوا هذا، ولا يجوز ذاك، وكنا نقول لمثل هؤلاء كأننا نَبصقْ من طرف شفاهنا... تفوه».

- أنتم جبناء وكفى!

أصدرنا صحيفة جديدة وكتبنا في العنوان الرئيسي كلاماً كبيراً «أيها السادة!... أيها السادة!... أنتم لا تخيفوننا... الخ» ثم أنهينا المقالة بعبارة «عيوننا لا تخشى مخارزكم».

كانت هناك مؤامرة علينا. فقد بدَّلوا أحد الأحرف الموجودة في كلمة عيوننا ليصبح «مؤخرتنا لا تخشى مخارزكم».

قال أحدنا:

- قراؤنا يعلمون ما الذي لا تخشاه مخارزهم لأنهم يحبوننا كثيراً.

ولأجل كلمة «لا ترهبوننا ولا تخيفوننا».

نزل علينا البلاء وتفرقنا إلى أماكن بعيدة. كالفراخ الصغيرة.

لم يبق في الساحة منّا سوى ثلاثة كنا نمضي أمسياتنا في حانات (بي أوغلو) نشكو همومنا لبعض، وكنت أقول أن مثل هذه الأمسيات ضرورية لحياة الإنسان وإلا فإنه لا يعتبر مِن الأحياء.

حاولنا إصدار صحيفة جديدة. ولكن لم يكن لدينا المال، فقال أحد الأصدقاء.

ـ غداً سأحضر معي أحد الأشخاص الأغنياء كي يعطينا المال اللازم لإصدار الصحيفة.

فرحنا كثيراً. والتقينا المساء التالي في الحانة. دخل شاب، يبدو أنه قد تعلَّم الكلام وهو في الثانية عشر. وبدأ يمشي في الرابعة عشر من عمره. ولأنه فطم عن صدر أمه في الثامنة عشر فهو يعيش حالة هسترية دائمة. ترك رضاعته في أرجوحته. وخرج من بيته من أجل (الأطَّه) وجاء إلى الحانة كالمعتوه ولم يكن لديه أية فكرة حتى عن شكل الصحيفة التي سنصْدرها.

تكلمنا عن شكل الصحيفة طولها وعرضها ولأنه سيدفع المال سألناه عن اسم الصحيفة.

ـ ما الاسم الذي تقترحه لهذه الصحيفة.

أسند مرفقيه إلى الطاولة ووضع يديه على جبهته وأخذ وضعاً رومانسياً كأنه يستعد لأخذ صورة فوتوغرافية. ثم نظر بعينيه الجميلتين إلى زجاجة العرق وقال بصوت ناعم يشبه فتاة القصر الشركسية.

ـ سُنْبلْ.

ضحكنا كثيراً وكان بيننا شاعر جهنمي صاح قائلاً:

ـ «عَرَقْ الجبين». أحلى اسم لصحيفة. «عَرَق الجبين».

قلب الشاب وجهه وكأنه اشتمّ رائحة العَرَقْ فقدم اقتراحاً جديداً. وقال:

ـ ليكن اسمها زهرة.

بدأ الأصدقاء بإطلاق الأسماء.

ـ قتال!

ـ حرب!

ـ تَقدُّم!

فأضاف الشاب:

ـ لنضع اسمهاً لها «باقة».

ـ لكننا كيف نستطيع تدبير سلَّة لهذه الباقة.

ـ «عروس» ... «زهرة التوليب»!...

كان يحاول إيجاد أسماء مناسبة له.

جاءت الزجاجة الثالثة من العرق. فغضب الشاب واحمرَّ وجهه وفجأة أنزل قبضته على الطاولة. وقال:

ـ «قبضة»!... اسم لا بأس به.

ناول صديقنا أستاذ الجامعة الشاب قدحاً آخر من العرق.

فقال الشاب متسائلاً:

ـ «شُعْلَة» كيف ترون هذا الاسم أيها السادة؟

أخذ قدحاً آخر... وبدأ الشرر يتطاير من عينيه وقال:

ـ لقد وجدت لكم أحلى اسم «شرارة».

وعندما تناول قدحاً آخر صاح متسائلاً.

ـ «لهيب» ما رأيكم أيها السادة.

وعندما تناول قدحاً آخر صاح.

ـ «حريق».

كنا صامتين. تفرقنا على أمل اللقاء في اليوم التالي.

وفي ذلك اليوم بدأ الحديث أيضاً عن اسم الصحيفة. فبدأ الشاب باقتراح أخرق.

- ليكن اسم الصحيفة «قُرنْفلْ».

بدأنا نعطيه قدحاً تلو الآخر.

- لنضع اسم «إنذار».

قدحاً آخر.

- كيف تجدون اسم «نَقْره».

اتفقنا على هذا الاسم. وفي اليوم التالي عندما اجتمعنا في الحانة المذكورة ظهرت من جديد أمامنا مسألة الاسم فقال الشاب الذي سيدفع المال لنا.

- أعتقد أننا إذا وضعنا اسم (توليب) فسيكون مناسباً جداً. وفيما كان يغادر الطاولة بدأ يصرخ.

- «نار».

كنا نتواجد يومياً في تلك الحانة. وكان ذلك الشاب يفتتح الأسماء بزهرة وعندما يذهب بسرعة يقول

- «بركان».

- أو «جَهنّم».

استمرت المناقشات شهراً كاملاً وكنا ندفع الحساب من جيوبنا. لكن ذلك الشاب الغني الذي وعدنا بمبلغ خمسمائة ليرة كرأسمال. لم نر منه شيئاً.

كان يقول لنا:

- أولاً لنتفق على الاسم فهو مهم جداً.

لم نستطع إيجاد اسم للصحيفة. ولم نستطع حتى إصدارها. لقد مضى الآن عشرون عاماً. صديقنا أستاذ الجامعة أصبح بروفسوراً، وصديقنا الشاعر أصبح نائباً في البرلمان. وصديقنا الرسام تزوج، أما أنا فأعمل كأستاذ رسم في إحدى ثانويات محافظة نائية الحمد لله لم أتقدم أبداً. حتى أنني نسيت الذهاب إلى الحانات.

أمس دعاني أحد الأصدقاء إلى الحانة. كان هناك شخص ثمل على الطاولة المجاورة وكان يصيح:

- «جَهنّم» كم هو اسم جميل لصحيفة. لنضع اسم «جَهنّم».

عرفت الصوت لم يكن غريباً عني.

- «مأتم» جميل جداً «مأتم».

التفت إلي وسألني صديقي:

- ألا تعرفه. إنه يأتي كل يوم إلى الحانة!

أردف ذلك الشخص قائلاً وهو يصيح:

- «قنبلة».

- لماذا يصيح بهذا الشكل؟

- يقول إنه يريد إصدار صحيفة وهو يبحث عن اسم لها.

وفيما كنت أغادر الطاولة أمعنت النظر في الشاب الذي كان يصيح قائلاً «قنبلة» قد دفع رفاقه ثمن المشروب أيضاً كان هو نفس الشاب ذو

الوجنتين الورديتين. الذي ضحك علينا منذ عشرين عاماً ونحن متصورون بأنه سيدفع لنا رأسمال الصحيفة التي كنا نود إصدارها.

قلت لنفسي:

- توه! حتى ذلك الشخص أصبح صاحب عمل ووجد طريقاً لكي يعيش لكنني حتى الآن لم أستطع أن أكون عصاً خشبية لفأس.

○ ○ ○

ابن الحلال إذا ذُكِرَ حضَرْ

الكلام المكتوب أدناه هو ما قاله عني صديق لي إلى صديق آخر. طبعاً أصدقاؤكم يتكلمون عنكم بنفس الطريقة وأنتم أيها القراء الأعزاء تتكلمون هذا الكلام أو ما يشبهه

ـ لنقل الحق إنه إنسان جيد. لكن أناني إلى حدٍّ ما... أليس كذلك؟ يو و و. هل تظن بأنني ضده؟ لا حاشى لله فهو رجل يفضل مصالح الغير على مصلحته. أتعرف ماذا يغضبني؟ إنه يبدو كإنسان ذا قلب طيب. ولكنه في نفس الوقت يعرف مصلحته... ولكنه ذو قلب طيب... نعم... صحيح... انظر إلى كتاباته فلا غبار عليها... إذا كتب، فهو يكتب بشكل جيد... ولكن يا أخي كل ما يكتبه لا قيمة له... حتى الآن لم يستطع أن يكتب شيئاً جدياً؟ إنه لا يكتب... وهو يعتقد أنه يكتب بمعرفة وهذا ما يزعجني... ألا توافقني أنه لا يكتب سوى التفاهات... لا تسيء فهمي. فأنا أحبه كثيراً وهو إنسان جيد.

رجل شهم... أليس كذلك؟ رجل ممتاز شرط ألّا تقرب جيبه... تحدَّث وتسامر واضحك معه ولكن إذا وصل الأمر إلى الأخذ والعطاء! اختلف الموضوع. ليس شاباً سيئاً ولكنه إذا اقترض من أحد فلا يرده أبداً. والحقيقة أن الإنسان يجب أن يعيش في هذه الدنيا بشرف. من جهتي تعلمت أن الدنيا أخذ وعطاء.

ها... انظر الحق يُقال إنه كريم إذا لم يكن موجوداً فالله موجود.. لكنه إذا أطعمك حبة زيتون يُسمع النّاس بأنها تنكة زيت. هذا هو كرمه. لكن بالله العظيم أنا أحبه. وأنا أقول هذا لأنني أحبه... يطعمك ويسقيك وهو يفدي أصدقاءه بروحه. ولكنك في الوقت الذي تنتظر منه إوَزَّه يأتيك بفرخ دجاج.

فضائله كثيرة لا تحصى ولا تعد. يقوم بكل ما بوسعه ليساعد أصدقاءه. يأخذ من الناس أما عطاؤه فقليل جداً يقولون في الأمثال. كالبقرة تأكل خمسة كيلو غرامات تبن كل يوم وتعطي ٢٥٠ غرام حليب وتسقط إذا أمسكتها من رجلها الخلفية. أليس كذلك.

صدِّقْني أنا أحبه أكثر من أخي لولا أنه غيور وحاسد... يا... لعلّك لاحظت ذلك!... حسود جداً ويغار حتى من أقرب أصدقائه على كل حال أنت تفهمني جيداً... طبعاً، طبعاً... وأنا أفهمك أيضاً. فهو من أحب الأشخاص إلى في هذا الدنيا. ولو كان أخي لما أحببته أكثر.

من جانب آخر فقد أحببته كثيراً يتكلم بصراحة.. إنه صادق بكلامه. إذا سألته يقول لك أن ذلك لطف وليس رياءً. دع عنك يا عزيزي فهو مرائي من الدرجة الأولى... وأنت تعلم أن أكثر ما يسبّب القرف هو الرياء.

قلت لك بالله العظيم أنا أحبه. لأن الإنسان الجيد يحبه الناس جميعاً. وهو لا يغتاب الناس بل يتكلم في وجوههم. لا يخفى إنه نمّام. ليس غريباً عنا هو أخونا وكبيرنا وروحنا. يعطي حق الناس أكثر من اللازم وهو يفكر بالآخرين قبل أن يفكر في نفسه. ولكنه انتهازي يحب مصلحته قبل كل شيء ولأجل مصلحته فهو لا يعرف صديقاً وحتى أنه لا يعرف أباه... انتبه لا تظن أنني أذَمُّه... حاشا الله.

وأيضاً يا أخي إنه رجل شريف. شريف جداً ولكنه... ها ها انظر لقد جاء الآن. «ابن الحلال إذا ذُكر حَضِر». أهلاً بك كنا نتحدث عنك أكثر من ساعة ونحن لم نُكمِل مديحك بعد. كنت أحدثه عن أصلك وفصلك وحبك للخير وكرمك.

○ ○ ○

المرحومة الليْرةْ

كل شيء كان يخطر ببالي، أما أن تنتحر فجأة فهذا لم أكن أتوقعه أمضينا عُمِرْنا سوية. ولكنها تركتني في أصعب الظروف، حيث لم أرتب حياتي بعد. أرسلت لي رسالة قالت فيها «لم أعد أطيق الحياة سأنتحر أما أنت فتدَّبر أمورك بنفسك» وسوف لن تصلك رسالتي إلا وأكون قد أنهيت حياتي... ونفذت هذا العمل القبيح. لا تتصوروا مدى حزني على موتها. لأن فقدها بالنسبة لي لا يشبه شيئاً آخر. فلو كان المنتحر صديقاً آخر أو حتى حبيباً أو زوجة لما حزنت بهذا الشكل.

بالأمس عندما عدت إلى البيت وجدت رسالتها في جيب البنطال. انظروا كم هي رسالة مؤلمة.

«عزيزي!

أعلم أنه سيطير صوابك عند قراءة هذه الرسالة وأنك ستبقى وحيداً كالأشخاص الذين يتركون الحكمْ. لا أعلم إذا كنت ستسامحني... لم أعد احتمل العيش في حياة لا معنى لها. لا علاقة لأحد بموتي ومسؤولية ذلك تقع على عاتقي فقط.

قبل أن أنتحر وخلال بضع دقائق استعرضت حياتي كلها كالشريط السينمائي (هذه الجملة كلاسيكية جداً بالنسبة لرسائل الانتحار). لقد أمضيت معك أياماً حلوة. فعندما أكون بجانبك. أبقى كالمعارَضَة التي دست الحكومة في فمها كومة من التبن تسمع ولا تتكلم.

تذكر قبل أربعين عاماً... عندما كنت تتركني في بيتك وتذهب أنت

للعمل. كان جميع أفراد عائلتك يفرحون ويسرون لقدومي كأنهم في عيد أو عرس. لقد أصبحت بفضلي رب عائلة محترماً وأباً ممتازاً وصديقاً وصاحباً ممتازاً.

ليس من داع للعودة كثيراً إلى الوراء ولنتذكر سنوات الحرب فلقد كنت تدخل أفخم مطاعم المدينة تأكل وتشرب وأذهب أنا إلى النادل لأدفع الحساب وأعطيه البقشيش وأعطيك الباقي.

كنت تشتري الجرائد، تذهب إلى السينما، تحلق ذقنك. تلّمع حذاءك أما أنا فكنت لا أعرف طعم الهدوء والراحة.

يا لها من أيام. كان من يحمل في جيبه اثنتين أو ثلاثة مني يشار إليه بالبنان تماماً كالمواطن الذي لم يأكل كرباجاً من الشرطة في حياته. فكر قليلاً كيف كنت تمسكني بين أصابعك الاثنتين وتأخذني إلى شارع (بي أوغلو).

ـ وما أن تشير بأصابعك كانت تتبعك الشقراوات والسمراوات. فلا أحد يستطيع مقاومة إغرائي. يعني بالمختصر لقد كان لي اعتبار وحيثيات. كُنْت نبضَ قلوبِ الناسِ أيامَ زمان!.

ـ لي ـ ره!.. لي... ره!... لي... ره. أما الآن فالشقروات والسمروات. والمهربون. وتجار السوق السوداء كلهم تغير نبض قلوبهم وأصبح.

ـ مل... يون!... مل... يون!... مل... يون.

شاهدت كثيراً من أبناء جنسي ممن أنتحروا قبلي. كان هناك فئة الخمس بارات وكانت من معدن النيكل. مسكينة لقد تعبت سنوات عدة. ثم توقفت. وبعدها انتحرت من القهر. وقبلها كان هناك (المتاليك) قرأت عن انتحارها في الكتب.

جاء بعد الخمس بارات المسكينة عشر بارات وهذه لم تدم طويلاً لأن الناس سَفَّهوا قيمتها كثيراً. وصاروا يقولون «إنسان لا يساوي عشر بارات» ولأن المسكينة لم تعد تحتمل هذه الإهانات فانتحرت.

المائة باره محزنة للغاية. مَرَّ رجل بأحد الشحاذين العميان ووضع في كفه المفتوح مائة باره. رفع الشحاذ الأعمى المائة باره ورماها في وجهه. لم تتحمل المائة بارة المسكينة هذه الإهانة فانتحرت.

وتعلمون أيضاً قصة انتحار الخمسة قروش وبعدها العشرة قروش: سقط من جيب أحد الأشخاص خمسة قروش فلم يبالِ بذلك ولم ينحن على الأرض لأخذها. وفي أحد الأيام سقطت في (ميدان التقسيم) قطعة من فئة العشرة قروش. بقيت في مكانها مدة أسبوع وكان كل من رآها على الأرض يقلب شفتيه ويمضي في سبيله. لم يكن هناك صاحب وجدان ليلتقطها من تحت الأقدام فانتحرت حزناً.

أمّا قصة انتحار فئة الخمسة والعشرون قرشاً كان محزناً جداً. كانت تدعى عين الجاموس وقطعتها كبيرة. كانت عين الجاموس في زمانها تحّل أصعب الأمور في دوائر الدولة عندما تلْمَعْ في يد أحد المواطنين، وكانت أمور هذا المواطن تسير ولو كان قبله مائة (مُراجع). كانت عين الجاموس هذه تفتح جميع الأبواب الموصده. ولكن في أحد الأيام أعطى أحدهم عين الجاموس لامرأة تقف أمام المراحيض في أحد (الكازينوهات) وهي (تَرشْ) الكولونيا للزبائن. فقلبت شفتيها لأن الخمسة والعشرين قرشاً وصلت لدرجة لا يمكنها فتح باب مرحاض. فانتحرت تلك المسكينة.

قُل ما تريد عني... فأنا لا يهمني الانتحار... يجب أن يبقى اعتباري كما هو. فبعد أن عملت كقائد أو مساعد قائد للجيوش في روسيا القيصرية لا أقبل أن أعيش بعد الانقلاب في زوايا الخمارات كالأعمى أو

الأعرج أو ضباط روسيا البيضاء الذين يبيعون القرنفل للسكارى.

لقد صدَّقتُ كلام التقارير الرسمية وتقارير مستوى المعيشة الصادرة عن غرف التجارة وكلام المحافظ والخطابات الدعائية وتحملت العيش فترة أخرى. لكنني عندما ذهبت البارحة إلى مطعم ومشرب فيه موسيقى. أعطاني أحد السكارى بقشيشاً لأحد الكراسين، لم أعجب الكرسون فرماني في وجه الزبون. قائلاً:

ـ خذ هذه لك... يا فلان الفلاني. غضبت كثيراً. لأن هذا الرجل حَقَّرني وأردت الذهاب إلى الشرطة لأقدّم شكوى ضده. ولكنني فهمت أنني وصلت إلى الحالة التي وصل إليها المتليك والخمس بارات والعشر بارات والأربعين بارة والمائة بارة والخمسة قروش والعشرة قروش وعين الجاموس. ولم أعد مرغوبة كعيديه للأطفال أو بقشيش للزبالين أو الكراسين أو للسيدات اللواتي تقفن أمام المراحيض أو حتى للشحاذين والجميع سَيشْمر أنفه ويذُم شفتيه. لذلك فلم أعد أطيق الحياة.

أنا أنتحر. وأنت اغتسل وضَعْ الحناء على يديك.

وداعاً يا أحلام شبابي الحلوة!... وداعاً لزينة العيش الزهيد.

صديقتك منذ أربعين عاماً الليرَّة

○ ○ ○

تربيتي لا تسمح لي

- «جُش»

لم أفهم لماذا قالتها السيدة:

كنت سأقول لها «عُذراً ما الذي جرى» ولكنني فَضلْتُ الصمت.

- لازالت تنظر إلي. أردت أن أقول لها سأقطع لسانك ولكن تربيتي لا تسمح لي بذلك.

كانت الحافلة مزدحمة. والتفت الجميع إلي. كان السكوت أفضل شيء. ولكن السيدة لم تتوقف عن شتمي.

- رجل قليل الذوق!... قليل التربية!!... رزيل... حتماً إنه قليل التربية.

وددت لو قلت لها «أرجوك أيتها السيدة توقفي عن هذا الكلام» لكنني عَدْلُت عن ذلك.

- تو و!... على وجهك. أنا أعرف ماذا يجب أن أفعل لو كانت تربيتي تسمح بذلك.

بدأ الجميع بالكلام.

- عيب يا هو... أهكذا يتصرف مع سيدة؟

- ماذا فعل.

- لعله زاحم السيدة.

- أو ربما داس على رجلها.

ـ أو لعله مدَّ يده.

ـ لو مدَّ يده فلا أهمية لذلك. لقد مدَّ إصبعه.

سأنزل من الحافلة. إذا وقفت. لأن هذه السيدة إذا عادت وفتحت فمها ثانية فلا أحد يستطيع إسكاتها.

ـ وقح... قليل الحياء. عدو العرْض والشرف... أنا أعرف ما يجب عليّ فعله ولكن تربيتي لا تسمح بذلك.

يقولون أنهن بلاءٌ. فأنا لم أفعل شيئاً حتى لم ألمس السيدة برأس إصبعي وماذا يهم لو حصل ذلك وسط هذا الزحام.

ـ يا قليل الحظ!... لقد وقعت مع سيدة عالية التربية... وإلا.

الحمد لله أنها كانت عالية التربية فلو كانت غير ذلك من يعلم ماذا كانت ستقول لي أيضاً!.

إنني أتصبب عرقاً.

ـ هؤلاء الأشخاص يندسون خصيصاً في الأماكن المزدحمة... يا الله دعني أحافظ على تربيتي.

بدأ صبري يَنفذْ. فحتى الحجر لا يتحمل ما تحملته.

ـ إحمد ربك أنني سيدة ذات تربية عالية وإلا كنت قطعت لسانك.

لم ينصفني أحد من الركاب.

ـ لعله قذفها بالكلام...

ـ السيدة على حق في كل ما تقوله!...

ـ لعله مدَّ إصبعه على هذه السيدة المسكينة.

ـ مثل هؤلاء يقولون عنهم أنهم (من تحت لتحت).

ـ لا يجوز إلى هذا الحد.

كان الجميع يؤيد السيدة ويلومنني أنا وبدلاً من أن تهدأ المرأة قليلاً كانت تتمادى في الصراخ.

ـ انظر إلي جيداً. إذا لم تعد تستطيع الاحتمال. فأنا على استعداد لأعطيك العنوان... اذهب إلى هناك... هل فهمت! والله لو تسمح لي تربيتي...

لم أعد أستطيع الاحتمال. فتحت طريقي ضمن الزحام وأمسكت السيدة من ذراعها وقلت لها.

ـ أيتها السيدة. لم يبق شيء لم تقوليه. ماذا فعلت لك؟

ـ أعزائي انظروا إلى هذا القبيح هذا الصرصور المسكين. الذي يظن نفسه رجلاً. من صنَّفك أنت مع الرجال! هل تظن أنني أتكلم معك! إذهب في سبيلك فأنا لا أتكلم معك... أنا أتكلم مع هذا الشاب الأسمر الطويل القامة.

ـ لقد ظن الكهل أنه هو المقصود... آه لو كانت تربيتي تسمح لي لكنت عرفت كيف أجيبها...

أن تكبر في السن فهذا سيئ جداً... لأن النساء لا يودون حتى تحقير كبار السن.

○ ○ ○

إكراميات العمارة

كانا يجلسان في مقهى (طوب خانه) ويتجادلان في موضوع حراسة أحد الأبنية.

ـ لا حراسة فقط...

ـ لا أرض بأقل من عشرين ألف ولو بمتليك واحد وهذا من أجل خاطرك.

ـ تكلم يا سيد درويش بالمعقول لكي نحل الموضوع.

ـ والله لا أرضى بأقل من هذا المبلغ. وإذا دفعت اليوم عشرين ألفاً خيرٌ لك من أن تدفع خمسين ألفاً في الغد.

ـ لماذا...؟ وهل ستعطيني أنت سند التمليك؟... الدخل الذي يجنيه بواب في عمارة (لوكس). يساوي أضعاف ما يحصل عليه صاحب هذه العمارة من المستأجرين.

ـ انظر يا عزيزي درمش أنا أيضاً بواب عمارة منذ عشرين سنة. القاطنون يعطونني ألبستهم القديمة كل عيد. ويعطونني بقشيشاً كلما سافروا أو ذهبوا في نزهة.

ـ لا الأمر هنا مختلف. فالعمارات (اللوكس) لها خصوصياتها.

ـ ما هي هذه الخصوصيات؟

ـ لنبدأ من الطابق الأخير. فهذا الطابق يسكنه أحد المتعهدين الذين يمضون نصف الشهر في البلد والنصف الآخر خارجه. وهذا المتعهد له زوجة جميلة جداً، وما أن يخرج المتعهد من المنزل. تتكلم السيدة بالهاتف. بعد

قليل يحضر صديق العائلة ويقف بسيارته أمام العمارة. وما أن يدخل الصديق حتى يدس في يدي عشر ليرات وعندما يخرج يدفع لي مثلها أيضاً. وهذا يحصل ثلاث أو أربع مرات في اليوم. كما أن الصديق يعطيني ثلاثة آلاف ليرة شهرياً. أما المتعهد فيعطيني عشر ليرات كلما خرج.

ـ لماذا يعطيك هو؟

ـ ألا تفهم. هناك صديق للعائلة يحضر حتى إذا كان الزوج موجوداً ورغم أن المتعهد على علم بمغامرات زوجته مع هذا الصديق إلا أنه يتجاهل الأمر. هذا الصديق يعطيني ثلاثة آلاف ليرة شهرياً. كي أكتم سر مجيئه للعمارة.

ـ ألا تعطيك السيدة؟

أنا أعيش بفضلهم وكرمهم. وأنا لا أرغب في أن تعطيني شيئاً.

وأتمنى لو كان هناك أكثر من عائلة لديها صديق... لكنت أنا أعطيت (قومسيون) للسيدة.

ـ ما رأيك يا درمش آغا؟

ـ والله. السيدة تناديني من فوق «عشر زجاجات بيرة واثنتان ويسكي» اشتريهم وآخذهم إليها وهي لا تدفع قيمتهم ألا يعتبر هذا «قومسيون».

ـ إ إ إ وبعد ذلك؟

ـ في الطابق الخامس... تسكن امرأة أصدقاؤها كُثُر والشغل لديها كثير طبعاً. وأنا آخذ خمس ليرات من كل زبون حتى أسمح له بدخول العمارة. أنا أجمع مالاً كثيراً بسبب هذه المرأة لدرجة أنني (أتضايق) في بعض الأحيان ولا أجد الوقت «للتبول».

ـ والله لم أفهم...

ـ يا بني أنت لست بواباً لأنك تقف مثل (الفزّاعة) في بستان هذه

السيدة. جعلت من بيتها عيادة للزبائن فهي تقوم بأعمال (الكورتاج) في هذا البيت... هل فهمت؟ ولكي تضمن سكوتي تعطيني خمسمائة ليرة راتباً شهرياً.

ـ أما الطابق الرابع... الطابق الرابع ذَهبٌ أصفر. في النهار لا يأتي أحد ويبقى مفتاح الشقة معي. وفي الليل تزدحم الشقة بالزائرين من مختلف الأجناس وأنا آخذ المال من الداخل والخارج. خمسة، عشرة، عشرون ليرة. وهذا عائد لكرم السيدة.

ـ إ إ إ وبعد ذلك يا درمشَ آغا.

ـ نأتي إلى الطابق الثالث... هذا الطابق مثل البنك... (الله يبارك لهم)... لا يقل دخلي الشهري منه عن ثلاثة آلاف ليرة.

ـ ماذا يوجد في هذا الطابق يا درمش آغا.

ـ أعمال، بيوت المواعيد، فأنا آخذ من الداخل ومن الخارج قدر ما أستطيع آخذ من النساء. ثم آخذ من الرجال... هؤلاء المقامرون الذين يقصدون بيوت المواعيد كُرَماء جداً... أنا لا أكذب ولا أضخم الأمور... فأنا لا أحْصَل من الطابق الثاني سوى على أجرتي الشهرية وقدرها ستون ليرة... سكان الطابق الثاني قليلو الشرف... فهم لا يُشِّغلون بيتهم كبيوت المواعيد. ولا يتركون الناس تلعب القمار. لكن لديهم ابنة كالوردة لابد وأن أعرف قصتها. فبالأمس أرسلت معي رسالة إلى الشاب الذي يعمل في صالة المفروشات التي أمامنا. أخذت منها خمس ليرات. سأطلب منها ثلاثمائة ليرة شهرياً سواء أخذت لها الرسائل أم لا. وإذا لم تدفع سأخبر صاحب العمارة لكي يرفع عليهم دعوى إخلاء وسأدفع آجار المحامي من جيبي. إنهم يخلّون بنظام العمارة.

ـ إ إ وبعد ذلك يا درمش آغا.

ـ وبعد ذلك نأتي إلى الطابق الأول. في هذا الطابق شخص مسكين لا يكلم أحد. وأنا أرغب في إخلائه ولكن ليس قبل أن أجد المستأجر المناسب. هناك الكثيرون الذين يرغبون السكن في هذا الطابق وأنا أقوم بالتحريات اللازمة. هذا الشخص لا خير منه فهو لا يعمل من بيته بيتاً للمواعيد أو القمار. أو يقوم بأعمال (الكورتاج)... التوْبة لن يدخل العمارة بعد الآن مثل هذا المستأجر. وسأخبر صاحب البناء عن هذا الشخص وأقول له أنه لا يدفع الآجار حتى يُطرَدْ ومن ثم أبقي البيت شاغراً حتى يأتي الشخص المناسب.

ـ إ إ درمش آغا؟

ـ وصلنا حتى الطابق الأرضي. هذا الطابق أنا من يسكنه وهو مؤلف من ثلاث غرف وصالة طعام. ومطبخ وحمام فيه مغطس وهو مجهز بالكهرباء والتدفئة المركزية وتمديدات الغاز وكل ما يلزم. زوجتي في القرية. وصديقتي تسكن معي.

ـ إ إ وبعدين درمش آغا؟

ـ ماذا تريد بعد ذلك. صاحب البناء يأخذ ستين ألف ليرة شهرياً عن كل طابق. ولا يقل دخلي عنه، بالإضافة إلى أنني لا أدفع ضريبة دخل ولا أية ضرائب أخرى. وأنت إذا دفعت لي عشرين ألفاً فستعوضها خلال ثلاثة أشهر... هل فهمت الآن.

حلَّ (فنبر آغا) حزامه وأخرج محفظة نقوده وعدَّ مبلغ تسع عشرة ألف ليرة وسلمها إلى درمش آغا. وأردف قائلاً:

ـ نحن أيضاً لدينا عيال وأطفال. وإن شاء الله. سترى الخير وحلال عليك هذا المكان.

○ ○ ○

هذا المحافظ سيصبح نائباً

على مدى ثلاث ساعات كانت أربع سيارات جيب تقطع الطريق. أمام مقهى القرية. ترجّل المحافظ من السيارة التي في المقدمة. ونزل بعده. كلٌ من أمين سر المحافظة ومدير الأمن وقائد الدرك ومدير الزراعة ومدير الصحة ومدير التعليم ومدير البريد ومدير السجل العقاري ومدراء آخرون.

خرج القرويون من المقهى عندما رأوا سيارات الجيب. وتقدموا من المحافظ، منهم من صافحه ومنهم من قبّل يده أو عائلته فبادلهم المحافظ بنفس المحبّة وعانقهم أيضاً.

كان لقاءً حاراً تدْمَعُ له العين من الفرح فقد كان الديمقراطيون ينتظرونه منذ سنوات عدّة.

دخل الجميع المقهى. جلس المحافظ في صدر المكان على الأريكة الخشبية المعدَّة له. واجلس بجانبه محمود آغا أكبر سكان القرية سناً ولم يجلس المحافظ في مكانه قبل أن يجلس هذا المعمِّر. جلس باقي القرويين على الأرائك الخشبية الأخرى كلاً حسب تسلسل سنه والبعض الآخر جلس على كراسي من القش.

أما باقي أركان المحافظة فأخذوا أمكنتهم المناسبة على يمين وشمال باب المقهى واقفين.

ـ أهلاً وسهلاً أيها (البيك)...

ـ أهلاً بكم أيها (الأغوات)

ـ أهلاً وسهلاً...

الجميع وضعوا أيديهم على صدرهم وهم يقولون:

ـ مرحباً!...

ـ مرحباً!...

تصرف المحافظ كما تصرف القرويون ووضع يده اليمنى على قلبه. وكان يقول لكل قروي:

ـ مرحباً، مرحباً!...

جاؤوا بالشاي والقهوة. وكان الموظفون المرافقون يرشفون الشاي والقهوة بدقة متناهية وهم وقوف. ودون إحداث أي صوت. لأنه لم تصدر عن المحافظ أية إشارة لهم بالجلوس. ما عدا واحداً من هؤلاء الموظفين المعروف بجرأته والذي لم يترفع في وظيفته خلال عشر سنوات إنه مدير الأحراج. ولأنه لم يعد يحتمل الوقوف من آلام الروماتيزم استند بمؤخرته على الجدار وبدا عليه الإرهاق. سأل المحافظ القرويين وبِتَصَرُف أبوي:

ـ كيف حالكم يا إخواني؟

ـ تسلَمْ يا بيك...

ـ الله يديمك...

ـ نحن بخير بفضلك...

ـ الله يديمك على رأسنا.

بدأ المحافظ الكلام يريد أن يوضّح كل شيء لأهالي القرية ولعله شعر بأنه واحد منهم فبدأ يتكلم بنفس اللهجة التي يتكلمون بها وكان يبذل جهداً كبيراً لتغيير حرف (القاف) إلى حرف (غين) ولأنه أحبَّ التمثيل عندما كان طالباً فقد نجح في تقليدهم.

ـ لقد اشتقت إليكم أيها الأغوات... أتعرفون كم يوماً مضى على آخر مرة جئتُ فيها إلى القرية.

أجابه أحد القرويين:

ـ ليس البارحة... أوَّل أمس كُنتَ هنا.

ـ آمان يا رجب آغا لقد حسبت أنني لم آتِ إليكم منذ سنة!... والله لقد اشتقت إليكم كثيراً.

التفت المحافظ الذي كان يتكلم عن كل شيء إلى أحد القرويين ممن جلسوا على كراسي القش وسأله.

ـ صادق آغا... أعتقد أن مشكلتك قد حُلَّتْ وأخذت قرضاً من البنك؟

ـ تسلم يا بيك. فلقد ذهبت البارحة إلى المدينة. وأخذت مبلغ ألفي ليرة من المصرف الزراعي.

ـ ماذا تقول يا صادق آغا. كيف ذهبت أمس إلى المدينة ولم تمر علي بطريقك. لتشرب فنجاناً من القهوة المرَّة.

ـ لا أريد إزعاجكم!...

ـ باه، باه، باه... ما هذا الكلام يا صادق آغا. دار المحافظة بيتكم.

ثم التفت المحافظ إلى شخص آخر وقال له:

ـ إسماعيل آغا، لقد رأيتك في الحلم البارحة.

ـ خيراً إن شاء الله.

ـ كان عقلي وفكري مشغولين عليك... أويت إلى فراشي وأنا أفكر فيما إذا كان أحد الأصدقاء بحاجة إلى أي مساعدة... كنت دائم التفكير بك في النهار والليل في الحلم.

كان باب المقهى يُفتح أثناء حديث المحافظ والقروي الذي يدخل يتوجه إلى المحافظ فوراً فإن كان شاباً قبَّلَ يدي المحافظ، وإذا كان كهلاً عانقه. وبعدها يتم السؤال عن الصحة. كان المحافظ يعرف أسماء الجميع. محمد، أحمد، حسين. وإذا حصل ونسي اسم أحدهم كان يسأله:

ـ لا تؤاخذني. لقد نسيت اسمك أرجو أن تذكرني به.

ـ سعيد.

ـ أيوه... لقد نسيت... تعال إلى جانبي يا سعيد. ولا تجلس هكذا بعيداً عني!...

أشار المحافظ إلى الأشخاص الذين يقفون أمامه وسألهم.

ـ هل تعرفون هؤلاء أيها الآغوات.

كان المحافظ يسأل في كل مرة يأتي فيها إلى القرية هذا السؤال. ويرد القرويون.

ـ نَعْرِفُهمْ يا بيك... ولكن المحافظ كان يصُر على تعريفهم في كل مرة.

ـ هذا الرجل الطويل القامة، النحيف؟

ـ نعرفه إنه رئيس الديوان...

ـ الذي يقف بجانبه... الشخص البدين... هذا مدير المال.

اذهبوا إليه عندما يكون لكم عمل وادخلوا غرفته بدون استئذان. وإذا لم تُحل مشكلتكم... اقصدوني أنا... ذلك الشخص الذي يربط ربطة عنق (مايله) وحذاؤه مفتوح.

ـ هذا لا نعرفه يا سيدي... هل هو مدير الزراعة.

وبعد أن يُعَرِّفَ المحافظ القرويين على كبار الموظفين الواقفين يعطيهم

الأمر بالجلوس.

ـ اجلسوا.

ـ بالماضي كنتم تحتاجون إلى مائة التماس حتى تتمكنوا من رؤية أحدهم أما الآن فهم أمامكم كاللقمة السائغة. وهذه هي الديمقراطية.

ـ أدامك الله علينا.

ـ هل لديكم ما تقولونه. هل لديكم أية شكوى؟

كان المحافظ كلَّما تقدم أحد القرويين بطلب. كان يلتفت إلى الموظف المختص ويقول له.

ـ سَجِّلْ شكوى الأخ... يجب أن تُحَلْ فوراً... أخبرني عن النتيجة...

كان المحافظ يتكلم مع موظفيه بلهجة استانبولية وكان القرويون يقولون لبعضهم وهم يمتدحون المحافظ «يا أخي محافظنا يتقن لغات عدة».

وفيما كان المحافظ يستمع إلى الطلبات فُتِحَ باب المقهى ودخل شاب نحيف. شاحب اللون، خجول وبملل ظاهر توجَّه صوب المحافظ.

فنهض المحافظ عن كرسيه قدميه وأخذ الشاب وعانقه وقبله من جبهته وقال له:

ـ كيف حالك؟

ـ شكراً لك يا سيدي!

شيء يدعو للحيرة فهذا الشاب يتكلم بلهجة مخالفة. كان يتكلم بلهجة استانبول.

ـ هل اسمك رضا؟ لقد نسيت!...

ـ كلا يا سيدي اسمي مُصْلِحْ.

رفع المحافظ حاجبيه إلى الأعلى. وأمعن النظر في هذا الشاب الذي لا يبدو عليه أنه من سكان القرية وسأله:

ـ من أنت؟

ـ أنا مُعَلِّم القرية يا سيدي!...

ـ إش ش ش رد المحافظ بهذا الصوت الذي يشبه الصغير فلم يفهم المعلم أي شيء وقف حائراً. فقال له المحافظ غاضباً.

ـ ابتعد... قف هناك!...

رجع مُعلِّم القرية خَجِلاً وكأنه ارتكب ذنباً ووقف مطأطئ الرأس في آخر الصف الذي يقف فيه الموظفون.

حان وقت الظهر فذهب الجميع إلى مضافة القرية جلس المحافظ على الأرض مع القرويين وأكل البرغل وباقي الأكل بالملاعق الخشبية. وشرب (العيران)... وبعد الأكل ركب الجميع سيارات الجيب فودعهم القرويون قائلين:

ـ مع السلامة.

ـ نرجو تشريفكم مرة أخرى.

ـ بالسلامة.

غادر الجميع القرية. بهذا الوداع الحار ولما وصلوا الطريق العام اتجهوا إلى قرية أخرى.

حان موعد الانتخابات وكان عدد النواب الذين يتوجب انتخابهم عن تلك المحافظة خمسة. لكن عدد المرشحين كان أربعة وثمانين مرشحاً وكان المحافظ من بين المرشحين. وكان متأكداً من أن الجميع سيصوتون لمصلحته. فهو منذ أربع سنوات وحتى الآن مع القرويين يستمع إلى

همومهم ويحل مشاكلهم ويستجيب لجميع طلباتهم. لقد كان واثقاً من نجاحه في الانتخابات. وفي الساحة العامة كانت الجماهير محتشدة فصعد المحافظ إلى منصة الخطابة. وألقى خطبته.

كان من بين الجماهير المحتشدة رجل اسمه مولود آغا قال للمحافظ والحزن يبدو عليه.

ـ اسمحوا لي... فأنا أريد أن أتكلم... من هذا المكان العالي.

كان المحافظ متأكداً من أن مولود آغا مؤيدٌ له لذلك أمسكه من ذراعه وساعده في الصعود إلى المنصة. مسح مولود آغا لحيته وأمسك الميكرفون وتوجه نحو الجماهير وبدأ يخطب فيهم قائلاً:

ـ يا إخواني. أَعلم أن محافظنا قد رشح نفسه للانتخابات... وأنكم ستمنحونه أصواتكم... ولكن هل فكرتم بالأمر جيداً؟ أنا أبلغ الثانية والثمانين من العمر. وحتى الآن لم تَرَ محافظتنا محافظاً مثله. فتح لنا الطرق والمدارس. وجلب المياه ومنحنا القروض. والآن إذا غادر المحافظة بعد أن نَمْنحه أصواتنا ويُصبح نائباً في المجلس النيابي فستكونون أنتم أول المتضررين. النيابة سهلة يُفلِحُ فيها كل إنسان لذا أطلب منكم أن تفكروا بالأمر وتتخذوا القرار المناسب.

نزل الآغا من على المنصفة. فإكفَهر وجه المحافظ وغضب كثيراً من حديثه وصعد المنصة مرة ثانية وخاطب الجماهير محاولاً إخفاء غضبه لمدة ساعتين وقال أشكر الآغا على مديحه وأعدكم أنني إذا نجحت في الانتخابات فسأضمن حق الشعب وحقوقكم من على منبر المجلس.

تفرق الجميع بعد سماع خطبة مولود آغا القصيرة. وفي الانتخابات التي جرت بعد أسبوع وبعد فتح صناديق الاقتراع تبين أن عدد الأصوات التي نالها ذلك المحافظ لم تتجاوز ٢١٤ صوتاً. هذه الأصوات كانت تمثل

عدد موظفي المحافظة الذين يريدون التخلص من هذا المحافظ إضافة إلى أربعة أصوات تمثل أصوات أفراد عائلته.

هذا المحافظ كان قد استقال قبل الانتخابات من وظيفته وهو الآن متقاعد. ويعكف على تأليف كتاب يتضمن تجاربه وعلمه في الإدارة لكي يستفيد منه غيره.

لم يبق في ذهنه من الخواطر خلال أربعة عشر عاماً أمضاها في الوظيفة سوى تغيير (القاف) إلى (غين) في بعض الأحيان. وكان يرفع رأسه من الكتابة ويقول لزوجته بتلك اللهجة القروية.

- زوجتي العزيزة. اعملي لنا قهوة. من فضلك.

○ ○ ○

ملك رَبْطَاتْ الأَحذية

جاءا إلى إستانبول عندما كان كل منهما في العاشرة من عمره. فعندما وجد يوسف عملاً له كحمّال في منطقة (بَبَكْ) شق شعبان طريقه وذهب إلى أميركا. وبعد مضي خمس سنوات على رحيل شعبان تمكن يوسف من معرفة عنوانه وأرسل له الرسالة التالية:

«أخي شعبان، أنت في بلاد الكُفْر. وبقاؤك هناك سيجعلك في أسفل السافلين. لأنك لا تفهم لغتهم ولا دينهم. الأعمال هنا كثيرة وأنا أعمل الآن كمعاون لبستاني في أحد الحقول المزروعة بالذرة الصفراء وأتقاضى راتباً شهرياً قدره مائتان وخمسون قرشاً ومكان نومي مؤمن. لقد أرسلت إلى القرية في يوم وقفة عيد رمضان مبلغ خمس وعشرين ليرة. عُدْ بسرعة فلابد وأن نجد لك باباً للعمل. إذا لم يكن لديك إجرة الطريق. أخبرني حتى أرسل لك راتبي، أرجو أن ترد على رسالتي هذه بسرعة».

بعد مضي عامين استلم يوسف من شعبان هذه الرسالة:

«أخي يوسف. مضى على فراقكم سبع سنوات. لم تفارق مخيلتي البلد خلال هذه المدة. ولكن ما العمل فأنا حتى الآن لم أستطع أن أتدبر أموري بشكل جيد. لقد عملت في البداية بمدينة ديترويت في معرض للسيارات بأجر قدره خمسة وعشرون دولاراً في الأسبوع. الناس هنا (لا يشغِّلون) عقولهم. فالأمريكيون أناس مختلفون جداً. تصور أنهم يقفون في الطوابير لمدة أكثر من الساعة. كي يتمكنوا من دخول المطعم في

الوقت الذي يكون فيه الباب المؤدي إلى المطبخ مفتوحاً ولا يدخل منه أحد، ولأنني دخلت من هذا الباب قبل الجميع وجلست إلى المائدة نظر الجميع إلي باستغراب. لذلك إذا كان عقلك في رأسك تدبر أمورك وأركب الباخرة وتعال إلى هنا. فأنت ذكي ويمكن أن تنجح أكثر مني. الجميع هنا عقولهم كالفلّين. لا تضع وقتك هناك. إذا لم يكن لديك مال فأنا أرسل لك مائة دولار».

أرسل يوسف إلى شعبان الرد التالي:

«أولاً أهديكم سلامي وأسأل عن شريف خاطركم. وأدعو الحق مولانا في خمسة أوقات كل يوم أن يديم عليكم الصحة والعافية. وإذا أردتم السؤال عني فأنا والحمد لله بخير ولا ينقصني إلا مشاهدتك. الوضع هنا جيد. الأشغال موجودة. وأفضل من السابق. أنا أتألم كثيراً كلما خطرت ببالي. ستنْدم إذا بقيت في تلك البلاد التي لا تعرف عاداتهم ولا أصولهم. حتى أكل هؤلاء الكفار لا يؤكل فهم يطبخون طعامهم بلحم الخنزير... كل شيء عندهم (نجس).

لقد زادوا راتبي مائة قرش. والبيك حفظه الله لا يبخل علي فهو يهديني دائماً أحذيته وألبسته المستعملة. ألم أقل أن الأمور أصبحت أفضل من ذي قبل. لقد وجدت لك عملاً هنا بأجر شهري قدره ثلاثمائة قرش إضافة إلى الأكل والشرب والبقشيش. وإذا أحببت هذا العمل فيمكن أن تستمر فيه وإلا فيمكن أن نجد لك عملاً آخر وهو عتال في الميناء. فكر جيداً بالموضوعّ... أرسل لك (مخمسَّه) أجرة سفرك في الباخرة... لا «تتشحطط» في بلاد الكفر».

بعد عام مضى استلم يوسف من شعبان الرسالة التالية:

«أولاً أرسل لك سلامي الخاص وأسأل عن عزيز خاطركم. لقد

سررت جداً بالرسالة التي أرسلتها لي. لقد أصبحت أجرتي مائة دولار في الأسبوع ستضحك كثيراً إذا أخبرتك كيف زادت أجرتي. كانوا يرفعون إحدى السيارات في المعرض (بالرافعة) لكي يحمّلوها على الشاحنة. تعطلت (الرافعة) فجأة. وبدأوا يبحثون عن طريقة لتصليح الونش رأيت أن الأمور ستطول. وفيما كانت السيارة مرفوعة وضعتها في الشاحنة. دُهش الجميع... وأصبحوا ينادونني بشعبان الرافعة. وزاد أجري الأسبوعي فأصبح مائة دولار. بعد هذه الحادثة صارت أنظار جميع السيدات اللواتي يعملن في المعرض مشدودة إلي والجميع يطلب ودي. خاصة تلك الشقراء الجميلة التي لها علاقة بمدير المعرض فقد صارحتني وهي تتوسل لي قائلة: إذا أنجبت منك طفلاً فلك مني ما تريد. ما رأيك هل هذا حلال أم حرام؟

أخي يوسف فكر في الأمر جيداً! فأنا على يقين من أنك سترفع الشاحنة بدلاً من السيارة التي رفعتها أنا. لا تتأخر في المجيء فالعمل هنا جيد. وحتى إذا تعذر علينا إيجاد عمل لك فيمكنك أن تعمل في إنجاب الأولاد... أرسل لك مبلغ مائتي دولار. لا تتأخر أنتظرك بفارغ الصبر».

توسل يوسف إلى أحد الأشخاص ليكتب له رسالة فكتب إلى شعبان هذه الرسالة:

«أولاً أهديك سلامي الخاص. وأقبل الكبار من أيديهم والصغار من عيونهم. وأهدي سلامي إلى الإخوان الذي يسمعون أو يقرأون هذه الرسالة فرداً فرداً. أخي شعبان الأمور هنا جيدة وهي في تحسن مستمر لقد زاد راتبي أربعين قرشاً (٢ مجيدي). دع بلاد الغربة وتعال إلى بلدك وكفانا ما عانيناه من لوعة الفراق. لقد وجدت لك عملاً كبواب في

عمارة في (ماجكا) لا تضيَّعْ هذه الفرصة، لأنك لن تجد أفضل منها علاوة على أن هناك غرفة في القبو مخصصة لك.

دعك من بلاد الغربة عُدْ إلى بلدك وستصبح رجلاً. أرسل لك مبلغ عشر ليرات... عد بسرعة».

أجاب شعبان بالجواب التالي:

«رئيس المعرض الذي أعمل فيه اسمه جونسون. في أحد الأيام كان رجل طويل القامة ضخم الجثة يزو رالمعرض. كان هذا الرجل يتحرش بي كلما رآني. تضايقت منه ورجوته أن يغادر المعرض. ولكنه لم يأبه لي. فتركته وتابعت عملي. في ذلك اليوم كان عدد زوار المعرض يتجاوز العشرة آلاف. وإذا بهذا الرجل يتقدم مني ويضربني بقبضته أمام الجميع. هجمت عليه وأمسكته ودخلت معه في صراع وعراك جدِّي. ثم رميته أرضاً. وبدأت أنهال عليه ضرباً. بدأ جميع الموجودين في المعرض يصفّقون، فقد كان هذا الرجل ملاكماً أميركياً مشهوراً. عَلِم المدير بالحادث فاستدعاني. ظننت أنه سيطردني. وإذ به يمد يده ويصافحني ويقول لي (برافو) باللهجة الأمريكية وزاد لي أجري مائة دولار. وبذلك أصبح أجري الأسبوعي مائتين وخمسين دولار. أعتقد أنه أَجْرٌ زهيد... لذلك قررنا نحن العاملين في المعرض أن نتوقف عن العمل إذا لم يزيدوا الأجور. ولك يا صديقي يوسف! أنت تجني على نفسك ببقائك هناك فلو جئت إلى هنا فبإمكاننا نحن الاثنين أن نحمل جميع من في المعرض على أكتافنا ونمسح بهم الأرض. أرسل لك مبلغ خمسمائة دولار تكاليف السفر... احضر بسرعة».

جواب يوسف:

«صديقي شعبان أفندي. الأشغال هنا متوفرة بكثرة ولكن هناك

نقص في الرجال في هذا البلد، لقد زاد راتبي ليرتان في الأسبوع: وأصبحت صديقاً حميماً لخادم البيك. ذهبت أمس إلى المحكمة الشرعية وأجريت عقد الزواج. لقد أعطاني البيك هدية الزواج وكانت عبارة عن طاولة قديمة و(منقل) من النحاس. وجدت لك فتاة جميلة أبوها بواب في البناء المقابل. تعال حتى أزوجك إياها. ثم نجد لك عملاً وتصبح رجلاً. بإمكانك مثلاً أن تأخذ قارباً وتبيع فيه الفواكه والقرع والباذنجان. وتعيش مثل الورد... دع عنك تلك السفالة وعد بسرعة. وإذا لم يكن لديك آجار الطريق فأنا أرسل لك مبلغ عشر ليرات».

رد عليه شعبان قائلاً في رسالته:

«سأقص عليك ما جرى لي... مدير المعرض الذي أعمل فيه له صديق مليونير، أحد الخارجين عن القانون ويسمونه هنا (Gangster) كتب إلى هذا المليونير رسالة يطلب فيها مبلغ خمسة ملايين دولار. وإلا فسيكون مصيره القتل. مثل هؤلاء لا تنفع معهم الشرطة أو الدرك، جاءوا إلي وقالوا لي «هل تستطيع أن تخلصنا من هذا الخارج عن القانون» هذا الشخص كان مديراً لمصرف له فروع في جميع أنحاء العالم، ويملك الكثير من البواخر ويدير أربعة وعشرين مكاناً للقمار. كما يعمل أيضاً في التهريب ويدير بيوتاً للدَّعارة. ليست كبيوت الدعارة التي في بلادنا. بل هي دعارة على مستو عالٍ... أعمال هذا الشخص تفوق التصوّر، فهو يقوم بقتل الأشخاص لكي لا يصيبه الملل.

ذهبت إليه وأمسكته من رقبته ولويت ذراعه وقلت له «ماذا تريد من صديق مديرنا؟» أنت لا تعرف هؤلاء الخارجين عن القانون إنهم فاقدوا

الرجولة. ولكنهم يعتمدون على مسدساتهم الكاتمة للصوت فيقتلون من يريدون ويفرون، أخذت المسدس من يده وقلت له «ولك سأضع هذا المسدس في مؤخرتك» امتلأ المكان بباقي أفراد العصابة فقلت لهم «إذا دنوتم مني فسأقضي عليكم» ضربت ذلك الشخص ضربة على قفاه طار لها صوابه. الآن يريدونني أن أكون معهم. وهم على استعداد لأن يدفعوا لي ثلاثة آلاف دولار شهريا. أما ذلك المليونير فقال لي «سأزوجك ابنتي وستكون مديراً للمعرض» أما أنا فلم أتخذ أي قرار حتى الآن.

ولك. يوسف تعال إلى هنا وكفاك عناداً. أرسل لك بمبلغ ألف دولار كآجار طريق. ونصبح أنا وأنت خارجين عن القانون (Gangster) وإذا لم يعجبك هذا العمل. نُنْشئ البنوك. كلا لا يمكن أن أقوم بأعمال فيها قلة شرف؟ ونستطيع أن نتزوج هنا ولمرة واحدة على الأقل من جميع بنات الأغنياء. أنت تُضيع وقتك هناك. وافقني مرة واحدة. أرسل لك ألف دولار».

بعد هذه الرسالة انقطعت أخبار شعبان عن يوسف أربعين عاماً ولكن يوسف لم ينس صديق الطفولة أبداً.

في تلك الأيام كانت الصحف تتحدث عن شخص تركي الأصل مليونير يود زيارة بلده الأم وهو أحد الملوك في أميركا (ملك رَبْطَات الأحذية) وقد ورد اسمه في الصحيفة على أنه «مستر شيبين». وبوصول شعبان إلى إستانبول بدأ بالبحث عن صديق الطفولة. لم يكن أحد يعرفه فقد كان يعمل بواباً في أحد أزقة (بي أوغلو) التي لا ترى الشمس.

عندما رأى مستر شعبان صديقه يقف أمام باب تلك العمارة ويلبس

بنطالاً مرقعاً لم يتعرف عليه تماماً. ولقد نسي اللغة التركية فبدأ يتكلم نصف تركي ونصف إنكليزي.

ـ من هناك مستر جوزيف؟

نظر يوسف إلى هذا الشخص الأميركي الطويل القامة والذي يبدو عليه أنه في سن الخمسين وقال له:

ـ هل تسأل عن يوسف المحامي؟... إنه في الطابق الثالث.

ـ تفضّل يا دكتور.

شعبان عرف يوسف من عينيه.

فدنا منه ولفّه من عنقه. وكان يوسف قد تعرف على شعبان من صوته.

ـ أأنت شعبان. لقد أصبحت كافراً على الوجه الأكمل. شكلك بك وكل شيء فيك أصبح كالكفار. هيا تفضل بالدخول.

أَدْخَلَ صديقه إلى الغرفة الوحيدة التي في القبو وبعد أن مسح لحيته نظر إلى شعبان وكان وجهه يلمع بسبب حلاقة ذقنه وقال له:

ـ أهلاً وسهلاً. لقد أصبحت سحنتك كالقرود. كم قلت لك وكم كتبت لك رسائل. وقلت لك إذا لم يكن لديك أجرة الطريق. فأنا أعطيك. لكنك فضلت أن تتشرد في بلاد الكفر أربعين عاماً... لقد (تبهدلْت). هل تتذكر عندما كنت أكتب لك عن العمل؟ فقد كانت الأعمال كثيرة. ولكن الآن الوضع (كساد). لو كنت أتيت منذ ذلك الوقت لأصبحت الآن رجلاً. انظر إلي الحمد لله لقد وجدت طريق العيش وأنا لا أحتاج لأحد والحمد لله.

زوجتي وابنتي في القرية أما ابني فيؤدي الخدمة العسكرية. على كلٍ

داع للندم. فأنا أستطيع أن أجد لك عملاً. ويمكنك أن تسكن عندي في هذه الغرفة... مطلوب الآن عمل لقهواتي في أحد الخانات... ما رأيك... إذا لم يكن لديك مصروف جيب خذ هذه الورقة من فئة الليرتين والنصف.

مستر شعبان رغم أنه لا يستطيع أن يتكلم التركية بشكل جيد. ولكنه فهم جيداً ما قاله يوسف. دسَّ الليرتين والنصف في جيبه وعانق صديقه العجوز وقبله قائلاً:

ـ أنا بدو يجي... في شوي شغل... وخرج شعبان وهو يذرف دمعتين من عينيه. ولكن ذلك المليونير الأميركي بدأ يستعد للعودة إلى أميركا منذ ذلك اليوم.

○ ○ ○

رَجُلٌ يهوى الأَدَبْ

جاء إلى الطابق الثاني مستأجر جديد. ونقل عفشه خلال أسبوع وأنتم تعرفون عمارات هذه الأيام فهي ليست كبيوتنا القديمة. فهناك الكثير من سكان تلك العمارات لا يعرفون بعضهم أو حتى أنهم لا يتبادلون التحية. ومثالاً على ذلك لم نكن نعلم بأن السيدة الشقراء التي كانت تسكن جوارنا بنفس العمارة تجعل من منزلها بيتاً للدعارة. إلا بعد اقتحام المنزل ونشر الخبر في الجريدة.

قبل أن أتعرّف على الجيران. الذين انتقلوا حديثاً إلى العمارة فقد رأيت في صباح أحد الأيام عندما خرجت من البيت رجلاً ضخماً يضع قبعة على رأسه وقد نكَّسها حتى وصلت إلى خاصرته. حيَّاني بمنتهى اللطف ورددت التحية بمثلها وتابعت سيري ولكنه استوقفني قائلاً:

ـ محسوبكم مؤمن أكرم أوزنار.

وبدون أن يترك لي فرصة للرَّدْ تابع حديثه.

ـ أنا الجار الجديد. لقد تشرفت بمعرفتك. شرفونا بزيارة إلى بيتنا لكي نمضي وقتاً طيباً بصحبتكم... سُررت جداً لمعرفتكم.

بهذه الطريقة تعرفت على السيد مؤمن. وفي مساء نفس اليوم أرسل خادمة إليَّ.

ـ سيدي يقول لكم تفضلوا.

ـ أعتذر فلدي ضيوف!

بعد ذلك صار مؤمن بك يدعوني لزيارته كل يوم. فكَّرت بأنني

إذا زرته سأقضي وقتاً طيباً بصحبته. ولكنني يجب أن أدعوه عندئذٍ لزيارة بيتي وهذا ما لم أكن أرغبه فلا يوجد في بيتي سوى أربع كراسي كتلك التي تستعمل في المقاهي والتي تشبه (الخوازيق). وأنا لا أريد أن أخجل أمام الناس... لكنه كان يدعوني يومياً. لدرجة حسبت معها أنني إذا لم أزره فسيمسكني ويدخلني بيته غصباً عني.

أخيراً قصدت بيته في أحد الأيام بعد أن تناولت طعام العشاء كانت غرفة الاستقبال أشبه بصالة عرض للمفروشات الحديثة. إضافة إلى الثلاجة والمكنسة الكهربائية والمسجلة والغسالة الأتوماتيكية. وطنجرة الضغط والخلاط. وأشياء أخرى أخذت مكانها في الصالون حتى بدا المنظر وكأنك في أحد أجنحة المعرض. دعاني إلى غرفة المكتب دُهشت جداً، فلقد كانت مكتبة فاخرة ملأى بالكتب... قلت في نفسي إن الإنسان يخطئ في بعض الأحيان. لقد ظننت أن السيد مؤمن أكرم من حديثي النعمة. التفت إلي قائلاً:

ـ محسوبكم. يفضل قراءة موسوعة المحيط.

كان يتكلم بلهجة غليظة، ولكن ماذا يهم؟

سألته عن عمله. فأجابني:

ـ أعمل في التجارة.

قرأ لي السيد مؤمن شيئاً من شِعْره. وسألني:

ـ كيف وجدت هذا الشعر؟

ـ جميل!

كان يستمر في القراءة كلما قلت له جميل، فانتقل من الشعر إلى القصة وقال لي:

ـ قصصي أجمل.

انتقل بعد ذلك للحديث عن الأسواق والتجارة، مَلْلت ذلك الحديث وأردت تغيير الموضوع فمددت يدي إلى أحد رفوف المكتبة. يا سبحان الله. أمضيت عمري كلّه بالكتابة والقراءة ولكنني لم أتمكن من تملك مثل هذه المكتبة الغنية.

قال لي مؤمن بك:

ـ كما ترى جميع هذه الكتب. هَدِيهْ.

ـ يا يا... من أهداها؟

ـ أنا أعرف جميع المؤلفين والمحررين فهم أحبابي ويسألون دوماً. عن خاطري. وهم الذين أهدوني هذه الكتب.

دُهشت كثيراً عندما سألني:

ـ هل تعرف الكاتب فالح رفقي؟

ـ لقد سمعت به!

طبعاً له كتاب جديد.

ـ وهذه هديته...

أمسكت الكتاب بيدي. كان الكتاب لفالح رفقي واسمه (جبل الزيتون).

ـ اقرأ ماذا كتب لي؟

كانت هذه الكلمات مكتوبة على الصفحة الأولى.

«إلى أخي مؤمن أكرم المحترم. أقدم لك هذا الكتاب ليكون ذكرى لصداقتنا».

لم يكن هذا أسلوب فالح رفقي. ولكن من يدري!

ـ هذا أيضاً ذكرى من رشاد نوري.

عصفور الشوك « إلى مؤمن بك مع جزيل احتراماتي... رشاد نوري».

ـ محسوبكم مشغول بالتجارة ولكن الأدباء كلهم أصدقائي.

مدَّ لي يده وأعطاني كتاباً آخر وقال

ـ هذا الكتاب للكاتب روشان أشرف.

ثم قرأ الإهداء.

«إلى أخي مؤمن بك. أرجو قبوله مع فائق احترامي... روشان أشرف».

الجميع قدَم إهداء بخط يده إلى السيد مؤمن أكرم. الكاتب يعقوب قدري والكاتبة خالدة أديب. وأنا أبحث في الكتب. وإذا بي أجد قصة لي كنت قد كتبتها منذ زمن بعيد قلبت غلاف الكتاب فكان هذا الإهداء «إلى السيد المحترم مؤمن أكرم بيك... ما فائق احترامي. حسن بيك تاش».

فجأة طار صوابي فسألته:

ـ هل تعرف حسن بك تاش أيضاً.

ـ لو لم أكن أعرفه. فهل كان سيهديني كتابه ويذيله بتوقيعه!

البارحة كان عندي هنا في البيت.

ولكي لا تكون الزوجة أقل معرفة من زوجها أضافت قائلة إنه يتكلم بلهجة استانبول الحلوة.

دُعيت إلى بيتهم في أحد الأيام لتناول القهوة. ولكي أتخلص من ذلك الجو الممل سألتهم:

ـ هل تعرفون شاعرنا الكبير توفيق فِكْرَتْ.

انبرت الزوجة قبل مؤمن بك قائلة:

ـ وهل من المعقول أن لا نعرفه. نحن نحبه كثيراً وهو يحبنا أيضاً ويزورنا باستمرار ويتناول الطعام عندنا. إنه يحب جداً المحشي بالزيت الذي أطبخه أنا.

إه. ما دامت الأمور كذلك فقد حان الوقت لفضح أكاذيب هذين الزوجين. فقلت بسخرية وأنا أضحك.

ـ أمان. ماذا تقولين يا سيدتي. إن توفيق فكرت متوفي.

ظننت أنهم سيخجلون لكن الزوجة قالت:

ـ يا... يا خسارة... منذ مدة لم يزرنا.

وأضاف الزوج:

ـ لقد كنت في حيرة! لماذا لم يعد يزورنا منذ مدة. معنى ذلك أنه مات.

وبدأ يردد بحزن واه واه واه.

عندئذٍ قلت لهم:

ـ لقد مضى أكثر من خمسين عاماً على وفاته.

ساد الصمت فترة بعد أن قلت هذا الكلام ونظر الزوجان إلى بعضهما في دهشة. لم يَدُم هذا الصمت طويلاً فقالت الزوجة:

ـ الله... الله... إن الأيام تمر بسرعة. كأن ذلك حدث البارحة.

لم أعقب على هذا الكلام. وأنا أغادرهم قلت للسيد مؤمن:

ـ شرفونا غداً نحن بانتظاركم.

ـ أرجو أن لا أزعجكم.

في الحقيقة لقد أزعجني في مساء اليوم التالي فبعد أن شرب القهوة. قلت له.

ـ إن مكتبتك أكبر. ولكن الكتب التي عندي موقعة أيضاً من كتَّابها.

ـ جميل جداً وما هي الكتب التي عندك؟

مدّدْتُ يدي إلى رف المكتبة وتناولت كتاب وفيق باش المترجم عن موليير وقلت للسيد مؤمن:

ـ اقرأ ما كتبه لي وفيق باشا:

قرأ الإهداء. «إلى ولدنا الحبيب... أحمد وفيق».

ـ من هو أحمد وفيق؟ ألم يكن قائد الجيش الثالث؟ فلم أجبه على سؤاله لعله يفهم ويخجل فأخرجت أحد مجلدات التاريخ للأديبة نعيمة وقلت له:

ـ انظر ماذا كتبت نعيمة؟

«أقدم إليك هذا الأثر ليكون شعاراً لمحبتنا مع جميع أحاسيس الود والاحترام... خادمتكم نعيمة».

نظرت إلى وجه الرجل كان غارقاً بالتفكير فقلت لنفسي لعله شعر بالخجل من نفسه ولكن بعد هذا التفكير سألني.

ـ هذا نعيم آغا الذي حدثتني عنه ألم يكن يعمل في استيراد القهوة!

لم افتح فمي بكلمة واحدة. لأنني إن فتحت فمي فلن أستطع السكوت و(سأغسل الرجل من رأسه حتى قدميه).

ثم أضاف:

ـ ولكن أنت ليس لديك أي أثر لكاتب معروف.

مددت يدي إلى الكتب المترجمة.

- هذا كتاب لـ «غوته». انظر إلى إهدائه «عزيزي حسن»

- أعاد السؤال... كِتابُ مَنْ؟

- غوته.

وضع يده على جبهته وبدأ يفكر طويلاً وقال

- غوته،... غوته... غوته... وبعد أن كررها عدة مرات قال لي

ألم يكن هذا الرجل وكيلاً لسيارات دودج.

أتعرفون كيف يتوقف القاتل عن الكلام فجأة أثناء التحقيق معه في ظروف الجناية التي ارتكبها ويقول (لم أعد أذكر شيئاً). وهذا ما حدث معي أيضاً فلم أعد أذكر ما جرى لي. ولم أصْحُ إلا وأنا في قسم الشرطة، وكتاب شكسبير في يدي ممزقاً... وكان مؤمن أكرم بك قد جلس على المقعد، وقد بدت على وجهه ويديه آثار أظافري.

صاح السيد مؤمن أكرم:

- أنا أدَّعي عليه!

التفت إلي الضابط قائلاً:

- أفهمنا... ما الذي حدث؟

مددت كتاب شكسبير الذي كان في يدي. كانت صورة شكسبير تتصدر الصفحة الأولى من الكتاب. فسألني الضابط.

- من هو هذا الشخص المُلْتَحي؟

- شكسبير!

- يعني إنه أجنبي؟

ـ هو إنكليزي.

ـ ماذا يعمل؟

ـ إنه شاعر.

ـ أين يسكن؟ كيف تعرفتم على هذا الشخص؟ أعطني عنوانه بسرعة!

التفتُ إلى مؤمن بك وقلتُ له.

ـ أرجوك... أتوسل إليك... امسكني...

التفت الضابط إلى الشرطة الموجودين في الغرفة وقال لهم.

ـ خذوهما إلى الشعبة السياسية. فهذه القضية ليست من اختصاصنا.

○ ○ ○

القَبَضايْ

قُتل الابن الأكبر لعباس آغا من قرية (كُلْ وِر) على يد مجهول. ولم يتم القبض على الجاني. وبقيت أسباب ودوافع الجناية خافية عن الجميع.

كان لدى الابن الأصغر لعباس آغا كلام كثير عن الموضوع. لكن الابن الأكبر ليس كذلك. فهو لا يتدخل بشؤون أحد ولا يعتدي على أحد. شاب شهم. يحب عمل الخير. وما دام بهذه الصفات الحسنة لماذا يهدرون دمه. ولا يمكن أن يكون سبب هذا الحادث مغامرة نسائية. أو سكراً وعربدة. أو لعب قمار.

كان عباس آغا رجلاً غنياً جداً ومعروفاً ليس من قبل أهالي القرية فقط بل من قبل الناحية وحتى المحافظة. وكان الجميع يحبونه ويحترمونه. ولكن ما الفائدة فلقد أصابه الحزْنُ والغَمْ بعد وفاة ابنه الأكبر. ولم يبق له الآن سوى ابنه الأصغر الذي سيحافظ على استمرار نَسْل العائلة. لكن هذا الشاب لا يشبه أخاه الكبير بشيء. فهو لا يطيع والديه أبداً شاب (شاذ) يقوم بجميع الرذائل. أزعج القرية كثيراً فهو منذ طفولته يدخل بيوت الناس ويتحرش بالنساء. يشرب حتى الثماله ويأتي إلى ساحة القرية ويملأ الدنيا صياحاً وعربدةً.

هذا الكلب الرذيل الذي لم يحترم أحداً حتى والده. يجب أن يوضع حدٌ لتصرفاته. رغم أن والده عباس رجل لا مثيل له ورغم أنه لا يرضى عن تصرفات ابنه المشُينه لكن لم يكن بمقدوره أن يثنيه عن هذه

التصرفات. والآن وبعد وفاة أخيه الأكبر وبقائه وحيداً ازداد سوءاً ولم يعد بالإمكان السيطرة عليه أبداً.

لم يعد بإمكان عباس آغا القيام بأي عمل. بعد فقدان ابنه الكبير وحزنه الشديد عليه. وازداد تعلقه بابنه الصغير الذي سيحافظ على نسله. وكان يخشى أن يكون ابنه الصغير على عداوة مع أحد فيُقدْم على قتله. لذلك بدأ يفكر بالبحث عن شخص شجاع مقدام يكون مرافقاً وحارساً وظلاً لابنه لا يفارقه أبداً ويحميه من كل الشرور التي يمكن أن يتعرض لها. عباس آغا لو وجد مثل هذا الشخص فإنه لن يبخل عليه أبداً، وسوف يعطيه راتباً جيداً وبيتاً وحقلاً. وكل ما يريد.

كان يقول لكل أصدقائه الذين يُصادفهم في المقهى أو في الطريق بأنه يبحث عن (قبضاي) ذي أخلاق حسنة.

خبر البحث عن هذا القبضاي عَمَّ القرى والبلدات المجاورة ولكنه تَشَعْبَ، أصبح الخبر هو أن عباس آغا قد عرف قاتل ابنه وهو ويبحث عن قبضاي ليأخذ بثأره.

مع انتشار الخبر في القرى والبلدات القريبة وحتى المحافظة بدأ يَفِدُ على قرية (كُلْ ور) كل من هَبَّ وَدَبْ، من القبضايات المعروفين. العاطلين عن العمل. وامتلأ بيت عباس آغا بهؤلاء. ولكن عباس آغا لم يعجبه أحد.

وفي إحدى ليالي الشتاء الباردة، والنار التي في الموقد قد أصبحت رماداً، وبعد أن انتهى عباس آغا من الحديث مع زوجته، وبينما كان يفكر تارة ويغفو أخرى. سمع نباح كلاب القرية. وأعقب ذلك طرقات على باب داره. هبَّ عباس آغا مذعوراً خشية أن يكون قد حصل لابنه أي مكروه وصاح.

ـ ما الخبر...؟ من هناك؟

كان الرجل الذي دخل بيت عباس هو أحد الجيران. الذي بادر عباس بالقول:

ـ هناك رجلٌ ضخم يقف أمام باب داركم ويحمل من السلاح ما يكفي لكتيبة أو أكثر. هذا الرجل لا ينقصه سوى المدفع.

قال عباس آغا لجاره.

ـ دَعْكَ من هذا الهراء. ما أصله وما فصله وماذا يريد.

ـ كان يقول أريد رؤية الآغا... ولكن بالنسبة لي...

ـ لا أحد يسألك عن رأيك. أريد رؤية هذا الرجل.

كان الجار على حق دخل الرجل وكان يشبه مستودع ذخيرة متحرك. دُهِش عباس آغا لمنظر هذا الرجل. ولكن ذلك الرجل قال بصوت رخيم:

ـ السلام عليكم.

كان الصوت الذي خرج من فم هذا الرجل رخيماً أشبه بصوت انفجار قذيفة مدفع هاون.

رد عليه عباس آغا قائلاً:

ـ وعليكم السلام... أهلاً وسهلاً... تفضل بالجلوس أيها الآغا.

كان هذا الرجل الضخم الواقف أمام عباس آغا قد غطى وجهه وصدره ببندقيتين وضعهما بشكل متضارب. تمنطق بأحزمة مملوءة بطلقات هذه البنادق. فلم تعد تر من هذا الرجل سوى شاربين ضخمين معقوفين يمكن أن يقف عليهما صقران. ولأنه علّق البنادق على صدره وليس على ظهره فمعنى ذلك أن يركب دابّة فهو لا يستطيع وضع البنادق على ظهره لأن أعقابها ستضرب ظهر الحيوان الذي يركبه.

التفت عباس آغا إلى جاره وسأله:

ـ هل سحبتم حصان الآغا إلى الإسطبل؟

ـ نعم يا آغا.

دعا عباس آغا ضيفه مرة ثانية إلى الجلوس قائلاً:

ـ تفضل اجلس... هذا الرجل الضخم المدجج بالسلاح من رأسه حتى قدميه لا يستطيع الجلوس قبل أن يتخلص من حمله. قبل كل شيء علَّق كل بندقية على مسمار في الجدار. ثم رفع ابنه على المقعد الخشبي ليحل له الأحزمة المرصوصة بالطلقات. علَّق أحزمة الطلقات في مكان آخر. ثم نزع جعبته أيضاً.

دُهش عباس آغا وجاره وهما ينظران إلى هذا الرجل الضخم كما لو أنه يقوم بتفريغ مستودع ليتمكن من الجلوس.

كما نزع الخنجر والحربة (اللتين يستعملهما الجيش) من على خاصرتيه ونزع فراشاً ضخماً كان على ظهره. كما نزع القنابل الموزعة على جميع أنحاء جسمه. حتى كنت تظنه شجرة قنابل. ووضعها على الأرض. وعندما نزع السيف الضخم المتدلي خلف مؤخرته لم يجد له مكاناً ليعلقه فأسنده إلى الحائط. لقد نزع معظم أسلحته وهبط على المقعد الخشبي كما لو أن جبلاً قد انهار وجلس القرفصاء. لكنه كان ما يزال يحمل كثيراً من الأسلحة القاطعة والنارية! فوق الحزام مسدسان هجوميان وفي حذائه سكين.

قال عباس آغا:

ـ أهلاً وسهلاً... أيها الصديق.

ـ أهلاً وسهلاً.

ـ كيف حالك؟

ـ الحمد لله. بخير.

ـ من أين أتيت. وما هي وجهتك؟

أَخْرجَ الرجل من حزامه علبة التبغ المصنوعة من الفضَّة وبعد أن لفَّ سيكارة وضعها في رأس (مشْرَبْ) طرفه من الكهرمان والباقي من الفضة ثم أشعل سيكارته وأخذ نفساً عميقاً. وبعد ذلك مدَّ يده إلى حزامه كمن يريد أن يسحب سكيناً وأخرج سُبْحته وبدأنا نسمع صوت نقرات حبات السبحة. وبعد أن أصدر صوتاً يشبه المدفع وهو يسعل لكي ينظف حنجرته بدأ بالكلام قائلاً:

ـ لقد أتيت من مكان بعيد... مكان بعيد جداً يا سيدي. لي صديق حميم لا أفضله عليكم. وهذا الصديق له أعداء، وأعداء صديقي هم أعدائي أيضاً... لذلك خرجت إلى الطريق وتبعت هؤلاء الأعداء واجتثثت أربعة منهم من جذورهم وأرسلتهم إلى جنة الحمير.

سأله عباس آغا.

ـ قتلت منهم أربعة؟

ضحك الرجل الضخم بسخرية قائلاً:

ـ لعلكم لا تعرفون عني شيئاً فأربعة أو خمسة بالنسبة لي لا تعني شيئاً... فأنا إذا لم أدخل في عراك مع كتيبة من الشجعان أعتبر أن المعركة لا طعم لها.

ـ الله... الله!

ـ لا أفضلهم عليك، فمنذ مدة نصبوا كميناً لابن صديقي وضربوه وما أن سمعت ذلك حتى ذهبت فوراً إلى مكان الحادث واشتبكت مع هؤلاء

الأنذال ومسحت الأرض بسبعة منهم.

ـ سبعة أشخاص؟

ـ ماذا يعني سبعة أشخاص بالنسبة لي. فأنا منذ عدة سنوات وحتى الآن يرتجف خوفاً كل من يسمع باسمي. منذ مدَّة كان لصديق روحي وحبيبي قضية ثأر. هجموا عليه وقتلوا كل من شاهدوه من أهله كما حطموا كل شيء وهربوا. أرسل لي هذا الصديق خبراً يقول لي فيه «أرجوك الحقني». حضرت... وبمجرد حضوري نزعت رؤوس أحد عشر شخصاً من على أجسامهم وقضيت عليهم جميعاً من جذورهم حتى لم يبق منهم شخص واحد ليقيم دعوى ضد صديقي هذا.

وخلال احتسائهم القهوة كان الرجل لا يتوقف عن سرد قصص القتل التي حدثت معه وعند الظهر وأثناء تناول طعام الغداء كان الرجل يتكلم عن أعماله وأفعاله.

أين سيجد عباس آغا مثل هذا الرجل الشجاع (القبضاي) فهو لم يرَ ولم يسمع في حياته عن شخص مثله.

وعند المساء قال الرجل وهو يستأذن.

ـ أرجو أن تأذنوا لي. فأنا أود السفر.

عباس آغا يبحث منذ مدة عن شخص مقدام ليجعله ابنه وقد وجده فكيف يفرط به. وبعد أن ودَّع الرجل أرسل في طلب جاره وقال له:

ـ يا بني، يا علي الأقرع. الحمد لله لقد وجدنا الشخص الشجاع الذي كنا نبحث عنه. لا يوجد له مثيل... ولكنني أريد أن أتأكد من شجاعته.

أجابه جاره علي الأقرع.

ـ لنتأكد يا آغا.

ـ اسمع جيداً... هذا الرجل الشجاع ركب حصانه وذهب وهو يهبط الآن إلى السفح. اذهب أنت من الطرف الآخر وانصب كميناً له عند أعواد القصب. وعندما يصل إليك اخرج إليه وقف بطريقه. لنرى حال هذا الرجل الشجاع ونتأكد من شجاعته.

ـ على رأسي يا آغا.

ـ انتبه جيداً. وافتح عينيك. فهذا الشخص ليس كسواه. قد يقضي عليك قبل أن تتنفس. اختبئ جيداً. وإذا صادفت أية صعوبة. اذكر اسمي وقل له أنا الذي أرسلتك.

ـ ولا يهمك يا آغا.

دخل علي الأقرع للإصطبل وأخذ الكرباج واستلم الطِريق وهو يغني. ولم يكّدْ يصل إلى مكان القصب حتى وجد الرجل فكَمَن له في حقل القصب وصاح.

ـ قف مكانك.

أوقف الرجل الضخم حصانه.

فقال له علي الأقرع:

ـ لا تتحرك... هذا القبضاي لم يتحرك بل بقي على ظهر حصانه وهو يرتجف كورقة الصفصاف.

ـ ترجَّلَ من على ظهر الحصان!

لم يفهم علي فيما إذا كان قد نزل أو وقع من على حصانه.

وظن أن هذا الرجل الضخم سيهجم عليه ويقطعه إرباً إرباً.

صاح به:

ـ أَلق بسلاحك أرضاً.

ألقاه..

ـ تقدم مني.

تقدم

ـ اخلع ثيابك.

خلع الرجل الضخم ثيابه فخرج علي الأقرع من كمينه وبدأ يضرب الرجل بالعصا على رجليه.

ـ اخلع ولك. لا تبقى على شيء... السروال فقط.

كانت أول كلمة تصدر عن هذا الرجل الضخم.

ـ لا تغضب يا آغا. احسب أنني كلبك أو عبدك. ولكن لا تغضب لا تقتلني وأنا أعطيك كل ما تريد.

ـ ستخلع كل ملابسك.

ـ هل تريدني أن أبقى عارياً؟

ـ نعم... نعم كما ولدتك أمك.

ـ سأجمدُ في هذا البرد.

ـ اسكت ولا تتكلم أبداً.. يالله لقد سمحت لك بأن تُبقي السروال فقط.

والآن اجمع كل الأغراض التي في الأرض وحمِّلها على الحصان.

هذا الرجل الضخم كان يطيع علي الأقرع في كل ما يقوله.

ركب علي الأقرع الحصان وقال لهذا الرجل العاري.

ـ اتبعني.

كان علي الأقرع يغني الأغاني الشعبية وهو على ظهر الحصان.

والرجل العاري يسير خلفه متتبعاً آثار أقدام الحصان فلما وصلوا إلى المقبرة التي في مدخل القرية قال علي الأقرع لهذا الرجل العاري:

ـ انتظرني هنا... وذهب إلى دار عباس آغا فقال له:

ـ لقد أتيت به يا آغا.

ـ أين؟

ـ في الباب.

خرج عباس إلى باب الدار فرأى حصاناً محملاً بالسلاح والذخيرة واللباس. فظن أن القبضاي تحت هذا الحمل. رفع بعض الأغراض فلم ير أحداً فقال:

ـ ولك يا أقرع الخنزير... أين الرجل... ماذا حل برَجُلنا المقدام.

فقال علي الأقرع

ـ هل تريد الرجل أيها الآغا؟ لقد ظننت أن لا لزوم له لقد تركته عارياً بالقرب من المقبرة.

ـ تو وو عليك يا رزيل. سيجمد الرجل من البرد.

لم يمضِ سوى عشر دقائق حتى كان هذا الرجل الضخم أمام دار عباس آغا وفكاه تصطكان من شدة البرد.

لما رأى عباس آغا هذا الرجل الضخم يقف أمامه عارياً سأله باستغراب.

ـ أمان ما هذا أيها البطل.

ـ لا تسأل يا آغا. لقد جاءني البلاء.

ـ أي بلاء هذا... أين كلامك. وأين أفعالك التي كنت تحدثنا عنها.

ـ لم أستطع هذه المرة يا آغا.

ـ أليس لديك بندقية.

ـ عندي.

ـ كل الأسلحة معك.

ـ نعم.

ـ حتى أنك تملك ذخيرة زيادة عن اللزوم.

ـ نعم زيادة.

ـ لديك. الحربة. والخنجر والسيف والقنابل الهجومية. ولديك فراش...

ـ كل شيء عندي يا آغا.

ـ القنابل التي كنت تحملها تكفي لتدمير كتيبة.

ـ نعم يا آغا. كل شيء موجود.

ـ إ إ كيف جرى لك ذلك إذن.

ـ لقد خرجت إلى الطريق بدون أخذ الاحتياطات اللازمة. فلقد كان معي كل شيء ما عدا (الكرباج). لقد نسيت أن آخذ (كرباجاً). فخرج أمامي رجل يحمل بيده كرباجاً. فلو كان بيدي كرباج مثله لكنت أنهيته تماماً. ولكن ما الفائدة فكل شيء عندي ما عدا الكرباج.

○ ○ ○

الملفوف الأسود

يتصدر الملفوف الأسود قائمة الطعام لدى أهلنا في منطقة البحر الأسود. النساء والرجال والأطفال والشيوخ. واحد من سكان البحر الأسود أصبح في مركز مرموق لكنه لم يستطع التخلي أبداً عن الملفوف الأسود. هذا الرجل اسمه جودت.

كان جودت لا يتخلى عن بذور الملفوف الأسود وهي دائماً معه في حلّه وترحاله. فيزرع بذور الملفوف في أي حفنة تراب يلقاها وبذلك يعوض عن اشتياقه لبلده. ويقولون أنه عندما كان طالباً يدرس في باريس قد اصطحب معه بذور الملفوف الأسود ولما لم يجد مكاناً لزرعها. زرعها في أصيص مخصص لزرع الزهور.

حتى أن مواطني البحر الأسود الذي يأتون إلى استانبول ويسكنون في مناطق المخالفات لا يتوانون عن زراعة الملفوف الأسود. أحد سكان العمارة زار صديقاً له في مناطق المخالفات وشاهد الملفوف الأسود فأحب منظره كثيراً فأخذ بعض بذوره وزرعها في حديقة العمارة.

والملفوف الأسود لا يحتاج إلى أية عناية كما لا يحتاج لسقاية أو سماد فنبتت بذور الملفوف وامتلأت حديقة العمارة بالملفوف من كل جوانبها.

لم نستفد من هذا الملفوف لأن أحداً من سكان العمارة لا يعرف كيف يُطبخ. كانت أوراقها تكبر وتتطاول ولم يبق إلا أن تمتلئ بالبذور وتصبح عديمة الفائدة.

في صباح أحد الأيام كانت امرأة عجوز تمر أمام العمارة فتوقفت فجأة عند رؤيتها الملفوف الأسود وبدأت تمعن النظر وتلتفت وبعد أن بقيت برهة على هذه الحال. تابعت سيرها. لكنها كانت تلتفت إلى الوراء في كل خطوة لتشبع نظرها من هذا الملفوف الأسود. التي لا تستطيع مفارقته بسهولة. كانت أقدامها تسير إلى الخلف بدلاً من السير إلى الأمام.

وفي المساء عادت هذه السيدة مرة ثانية ووقفت أمام حديقة العمارة وبدأت تتمتع بمنظر الملفوف الأسود.

بعد ذلك صار سكان العمارة يشاهدون هذه المرأة العجوز تأتي إلى العمارة وتسند يديها على السياج وتمعن النظر في الملفوف الأسود.

وذات يوم وفيما كانت المرأة العجوز تتفرج على الملفوف الأسود كانت زوجة جارنا الذي زرع الملفوف وصديقتها تقفان قرب النافذة.

فسألت المرأة العجوز هاتين السيدتين بلهجة البحر الأسود. قائلة:

- لا تؤاخذوني. هل هذا الملفوف لكم؟

أجابتها السيدتان.

- نعم لنا.

- لماذا لا تطبخونه؟

- لا نعرف كيف يُطبخ يا خالة.

كانت المرأة العجوز مندهشة جداً لهذا الجواب.

- ماذا... القسم الأسود هو الذي يطبخ... لا يعرفون كيف يُطْبخْ الملفوف.

خسارة سيمتلئ بالبذور... هل أقطف قليلاً منه؟

- طبعاً... ادخلي وخذي ما تشائين يا خالة.

فرحت المرأة العجوز وقالت:

ـ إذن سأحضر كيساً وأدخل.

ذهبت مسرعة وعادت وبيدها كيس وباليد الأخرى سكين كبير له رأس منشار وبدأت بقطع أوراق الملفوف حتى امتلأ الكيس.

كان باقي سكان العمارة الذين يسكنون في الطوابق العليا ينظرون من النوافذ إلى تلك المرأة العجوز وهي تقطع أوراق الملفوف بِفَرحٍ عارم.

قالت إحدى السيدتين الواقفتين في النافذة.

ـ نحن لا نعرف كيف يُطبخ. ولم نأكله أبداً. يا خالة.

ـ خسارة... ماذا تأكلون إذن.

وقبل أن تجيب إحدى السيدتين على سؤالها أكملت العجوز كلامها قائلة:

ـ إذا طبخ يصبحُ مميزاً... ألا تعرفان جودت... ألا تعرفانه... جودت ابن بلدنا... هو يحب الملفوف الأسود كثيراً.

ـ كيف تطبخونه يا خالة؟

ـ طبخه سهل يا عزيزتي... جودت هو من أهالي منطقتنا... قريب لي.

ـ هل تصنعون منه الشوربة... أم تطبخونه طعاماً.

ـ هذا الملفوف الأسود يُصلح لكل شيء... جودت قريبنا... من قريتنا، إنسان طيب لا أفضله على الحاضرين.

ـ هل تعملون منه المحشي يا خاله.

كانت السيدة العجوز قد وجدت الفرصة المناسبة لمدح ابن بلدها جودت. فقالت:

ـ والدة جودت كانت تطبخه محشياً. بيتنا في القرية أمام بيت جودت ألسنا أقرباء. فخالة والدتي قد زوجت ابنتها إلى ابن عم جودت حفظهم الله... جودت رجل طيب... عاقل... ليس من السهل الوصول إلى ذلك المنصب فهناك الكثير من الكلاب عيونهم على منصب جودت. لكنه استطاع أن يختطفه من الجميع.

ـ هل تسلقونه يا خالة.

المرأة لم تفرغ بعد من الحديث عن جودت فسألوها:

ـ من... جودت.

ـ لا إننا نسأل عن أوراق الملفوف.

ـ يُغسل أولاً... يؤكل نيئاً... ويمكن أن تصنعي منه سلطة. ويمكن أن تسلقيه... حقل السيد جودت قريب من حقلنا.

ـ يجب أن لا يُلمسْ أليس كذلك يا خالة.

ـ من؟ جودت... لا مثيل له... لا يلتفت حتى لو مرت من جانبه فتاة أو سيدة.

ـ هل تضعون فيه الأرز.

ـ جودت يحب بطنه.. يأكله إذا وضع فيه الأرز أم لم تضعيه ألم أقل لك. هو ابن بلدنا البيت مقابل البيت.

ـ ماذا تضعون في جوفه أيضاً. يا خالة.

ـ جوف من؟

ـ أنا أتكلم عن أوراق الملفوف.

ـ ها.. يمكن أن تضعي كل شيء... في العيد الماضي أرسلنا له برقية تهنئة... رد علينا بسرعة. إنه متواضع جداً وطيب جداً.

ـ هل تطبخونه باللحمة؟

ـ كان ضعيفاً رقيقاً كالعود لكنه كان يزداد لحماً وشحماً ودماً كلما عَلَتْ وظيفته.

كانت لا تتوقف عن قطع أوراق الملفوف وإملاء الكيس وهي تتكلم.

ـ نحن أقرباء مع جودت من طرف والدتي. فزوج بنت حما والدتي هو عَديل حماي. هل فهمت؟

وضعت الشوال المليء بأوراق الملفوف الأسود على ظهرها وقالت للسيدتين اللتين في النافذة وهي خارجة من الحديقة مودعة.

ـ أراكما دائماً بخير.

○ ○ ○

مذياع صبري الأحدب

في بداية الحرب العالمية الثانية لم يكن سوى ثلاثة أو أربعة أجهزة مذياع في بلدتنا. كان أول من جلب المذياع إلى المقهى هو الأحدب صبري وأصبح اسم المقهى بعد ذلك مقهى المذياع.

ورغم كثرة عدد المقاهي في البلدة إلا أن الناس بدأت تتوافد على مقهى صبري الأحدب (مقهى المذياع) حتى أنك لم تعد تجد مكاناً للجلوس أو حتى الوقوف فيه أو في حديقته على أثر ذلك اضطر أصحاب المقاهي الأخرى لشراء أجهزة مذياع رغماً عنهم. لكن الناس بدأوا يقصدون المقهى الذي يصدر عن مذياعه صوت أقوى. وحتى يتمكن صبري الأحدب من إسكات الأصوات في المقاهي الأخرى قام بشراء مذياع ضخم لدرجة أنه غطى عُشر مساحة المقهى.

كانت أجهزة المذياع تعمل على البطاريات في ذلك الوقت لأن الكهرباء لم تكن قد وصلت إلى بلدتنا بعد.

وكان الزبائن يقصدونه حتى من القرى البعيدة خاصة عندما يحمى وطيس المعارك ليستمعوا إلى الأخبار من راديو صبري الأحدب وكان الزِّحام يشتد كثيراً أوقات الأخبار ويمتلئ المقهى ويقف الناس في الشارع.

كان على مقربة من مقهى صبري الأحدب عدد من المقاهي وتحدياً لمقهى صبري فقد عَمَدَ أصحاب هذه المقاهي إلى رفع صوت المذياع في

ساعات الأخبار حتى آخر عيار. فكانت سماء البلدة تضج بأصوات المكبرات المنبعثة من تلك المقاهي.

صبري الأحدب له تسعة أولاد. ثماني بنات وصبي وهو أصغر الأولاد. حاول صبري الأحدب أن يصنع شيئاً من ابنه ولكنه فشل. ونجح في عمل المقهى. أما البنات الثمانية فأنت تحتاج إلى شاهد حتى تقول عنهن أنهن بنات كلهن يشبهن الرجال فالواحدة منهن مقابل ثمانية رجال. كنت لا تستطيع أن تفرق بين البنات وأخيهن ولا بين الأخ وأخواته فجميعهم كانوا متشابهين في تصرفاتهم.

في تلك الأيام لم تكن تجد من يلبس بنطالاً من النساء وحتى في المدن الكبيرة. لكن بنات صبري الأحدب كُن يرتدين البنطال ويقصرن شعرهن كالرجال. وكن يقمن بجميع الأعمال اللازمة للمقهى. فمنهن من تحضر القهوة والشاي ومنهن من تقوم بخدمة الزبائن وغسل الفناجين والكاسات ومنهن من ينظف المقهى. وإحداهن كانت تحاسب الزبائن. أما البنت الصغرى فكانت تقف أمام باب المقهى وهي تصيح بأعلى صوتها.

- تفضلوا... تفضلوا... مذياعنا صوته الأعلى... وهو يذيع أصدق الأخبار.

كانت جميع الفتيات مهضومات وقريبات من القلب وأما الفتاة (كوزوم) فهي تختلف عن الأخريات تجيد التقليد بشكل ملفت للنظر فما أن يأتي إلى المقهى زبونٌ جديدٌ حتى تقوم بتقليد لهجته وصوته بعد خمس أو عشر دقائق وبشكل مدهش. كانت تستمع إلى الأخبار ومن ثمَّ تعيد ما سمعته بدون أن تنقص كلمة أو حرفاً أو حتى فاصلة. وبنفس نبرة صوت المذيع. لدرجة أن من كان يسمعها دون أن يرى وجهها

يعتقد أن نشرة الأخبار هذه تصدر عن المذياع. أما صبري الأحدب فكان يعزف على (الطنبق) أحياناً لتسلية الزبائن.

من بين رواد مقهى صبري رجل بخيل جداً اسمه (دُرْسُن آغا) كان هذا الرجل يأتي من إحدى القرى إلى مقهى صبري ليسمع الأخبار ويقف عند باب المقهى كي لا يدفع شيئاً ودون أن يشرب أي شيء يسمع الأخبار ويعود إلى قريته. أما إذا صادف أحدهم وطلب له الشاي أو القهوة فإنه يجلس عدة ساعات.

هذا الرجل البخيل. أضاع أو سُرق منه فأسه ذات يوم فأقام الدنيا وأقعدها، ذهب إلى قائم المقام وإلى الدرك. وأخبر الجميع وكان يردد أمامهم (فأسي... فأسي) لا غير. كانت الضجة التي افتعلها دُرسن آغا في البلدة كبيرة لدرجة تظن معها أنه أضاع خزنة مال. لم يكن هذا التصرف ينبع من بخل درسن آغا ولكن من حرمانه أيضاً ـ لأن الناس جميعاً كانوا يعانون من الحرمان بسبب الظروف الصعبة التي خلفتها الحرب. حتى أن معظم رجال القرية هاجروا إلى بلاد الغربة سعياً وراء لقمة العيش. وهكذا أضاع درسن آغا أو سرقت منه فأسه في هذه الظروف العصيبة لدرجة أن فأس درسن آغا أصبح هم الجميع. ولأن حديثه كان ينصب في المقهى على هذا الموضوع. من هو السارق. هذا... أو ذاك كان المتحدثون يقولون. أن من سرق فاساً في يوم ما فلابد وأن يشتبه به. وبعضهم كان يقول. ماذا تساوي هذه الفأس ومن يتنازل لمثل هذه السرقة. أصبح جميع الموجودين في المقهى مهتمين بموضوع سرقة الفأس. حتى أن الأحاديث كانت تدور حول موضوع السرقة ونسي الجميع نشرات الأخبار.

شخص وحيد كان على علم بمن سرق الفأس، هذا الشخص هو صبري الأحدب لكنه لم يخبر أحداً بذلك الشخص وهو أحد سكان قريته

الشخص منذ زمن في مقهى صبري الأحدب عندما كانت بناته صغيرات السن. كان لصاً لا مثيل له على وجه الأرض. كان صبري الأحدب يراقبه وأمسكه عدة مرات وهو متلبس بالسرقة. هذا الواطي المنحط. ولأنه اعتاد السرقة فقد كان يسرق نفسه عندما لا يكون هناك زبائن في المقهى. يخلع سترته ويعلقها على مسمار في حائط المقهى ثم يمشي على رؤوس أصابعه وينظر إلى باب المقهى كي لا يراه أحد ويدس يده في جيب السترة المعلّقة على الحائط ويسرق فلوسه ويضعها في الجيب الآخر. إنه يقوم بسرقة نفسه كي تبقى يده معتادة على السرقة.

كمال هذا شاب نشيط جداً في عمله ولكن صبري الأحدب لم يعد يتحمل سرقاته فطرده من المقهى ورجع إلى قريته. معنى ذلك أن من سرق فأس درسن آغا هو ذاته لأنك لن تجد أحداً يمكنه أن يتنازل ليسرق فأس رجل مسكين سواه.

كان صبري الأحدب متأكداً من أنه هو الذي سرق فأس درسن آغا ولكنه لم يستطع أن يقول لأحد.

في إحدى الأمسيات ذهب صبري الأحدب إلى بيت مدير المدرسة الابتدائية وهو في حالة تشبه الهستيريا. فوجئ المدير بمجيء صبري لأن الوقت تقريباً موعد إذاعة الأخبار ولأن من عادة المدير الذهاب في مثل هذا الوقت إلى مقهى صبري الأحدب لكي يستمع إلى الأخبار لأنه لا يملك مذياعاً في بيته.

قال له المدير

ـ أهلاً بك صبري أفندي ماذا جرى؟

ـ لقد انتهيت... انتهيت يا مديري.

قال له المدير

ـ أهلاً بك صبري أفندي ماذا جرى؟

ـ لقد انتهيت... انتهيت يا مديري.

ـ ماذا جرى لك... أخبرني.

ـ لقد فرغت بطاريات المذياع.

ـ أرسلها إلى المدينة... املأها أو اشتري غيرها.

ـ لا يوجد لدي وقت أيها المدير... فالأخبار ستذاع بعد قليل. ومذياعنا أخرس... وأنت تعرف أن الزبائن ما أن يعلموا أن المذياع متوقف سيغادرون المقهى إلى مقهى آخر لسماع الأخبار... وإذا انقطعت رجلهم عن المقهى مرة واحدة سوف لا يأتون إلى المقهى مرة أخرى مهما حصل وسوف ينسون أن أول من جلب المذياع هو أنا... لقد انتهيت... انتهيت.

ـ طيب ما العمل؟

ـ يا سيدي المدير. السائق (ويس) لا يخالف لك أمراً وكلامك عنده مقدَّسْ. اطلب منه بطارية الشاحنة هذه الليلة فقط وأنا سأذهب غداً صباحاً إلى المدينة لكي املأ البطارية.

شرح المدير الموضوع للسائق ويس فأجابه السائق.

ـ الشاحنة محمَّلة يا سيدي وأنا سأسافر الآن. وإلا كنت أعطيتها لك. فأنا روحي فداء لك.

عندما شرح المدير الوضع لصبري الأحدب وأفهمه أن لا أمل يرتجى

موضوع التحدي مع المقاهي الأخرى إلى موضوع آخر هو شرف المهنة فكيف يصمت مذياعه في الوقت الذي تهدر فيه أصوات المذياع في المقاهي الأخرى.

حان وقت الأخبار فخرج مدير المدرسة من منزله لأن الأخبار ستذاع بعد قليل وفيما كان صبري الأحدب متجهاً إلى مقهاه كان هناك خمس عشر دقيقة لإذاعة الأخبار. ظن أن ساعته متأخرة كان مقهى صبري الأحدب أكثر ازدحاماً من كل مرة.

فتحوا طريقاً للمدير وأعطوه مكاناً للجلوس. معنى ذلك أن صبري الأحدب قد وجد من أعاره بطارية. وحل أزمته. كان المذيع يقرأ البلاغ الصادر عن القيادة العامة للجيش الألماني.

«تم الاستيلاء في معركة أمس على ٣٠٠ دبابة و٥٠٠ شاحنة وتم أسر كتيبة من الأعداء... الوضع غير معروف. ولكن هناك أمل فالله معنا... الخ».

ثم عاد المذيع ليقول:

ـ هنا إذاعة أنقرة والآن إلى أخبارنا المحلية.

وبعد إذاعة بعض الأخبار المحلية. بدأ المذيع بإذاعة هذا الخبر الغريب «بعد التحريات التي قامت بها أجهزة الأمن عن الفأس المسروقة من السيد درسن قبل خمسة عشر يوماً. تم العثور عليها. وتم معرفة السارق وسيتم ملاحقته من قبل رجال الأمن والقبض عليه وتسليمه للعدالة لينال جزاءه العادل». لم يكن هناك في المقهى سوى أصوات اشتباك وما أن سمع الجميع خبر الفأس حتى أصبحوا جميعاً آذاناً صاغيه. تابع المذيع الأخبار قائلاً:

«وبفضل الجهود التي بُذلت من قبل رجال الأمن تم القبض على سارق الفأس المدعو كمال وسُلِّم للعدالة وسوف تتخذ بحقه الإجراءات القانونية. إلى هنا تنتهي نشرة الأخبار الثالثة والآن سنذيع عليكم بعض المقطوعات الموسيقية».

بعد ذلك قام صبري الأحدب بإسكات المذياع لأن جميع الموجودين في المقهى لا يرغبون في سماع الموسيقى الغربية.

أصابت الدهشة جميع الموجودين في المقهى. لسماع تلك الأخبار ومع تلك الدهشة. كان الجميع صامتين. وفجأة بدأ الجميع بالكلام.

ـ حلال عليهم.

ـ يا أخي. حقيقة أن الحكومة لا يُخفى عليها شيء.

ـ وأيضاً الحكومة يدها طويلة... فهي تقبض على المجرم أينما كان.

ـ معنى ذلك أن فأس المسكين درسن آغا سرقها كمال.

ـ إنه قليل شرف.

ـ والله شيء غريب! كيف تمكنت تلك الحكومة العتيدة التي تقبع في أنقره من معرفة سرقة فأس من هذه البلدة المحرومة.

ـ وبنفس اليوم...

ـ الآن؟

ـ الآن سيقبضون على المجرم كمال.

بعد أن انصرف جميع الزبائن من المقهى. بقي المدير جالساً لم يغادر

ـ الآن سيقبضون على المجرم كمال.

بعد أن انصرف جميع الزبائن من المقهى. بقي المدير جالساً لم يغادر المقهى. علماً بأن من عادته أن يغادر المقهى قبل الجميع قال له صبري الأحدب

ـ خيراً... لقد تأخرت هذه الليلة. يا سيدي المدير.

ـ هل من المفروض أن أذهب باكراً.

ـ كلا... على راحتك... هنا محلك... تذهب متى شئت.

ـ تريدني أن أذهب باكراً لكي لا أرى ابنتك (كوزوم) وهي تخرج من خلف الستارة. أليس كذلك؟ افتح هذه الستارة وأَخْرج (كوزوم).

فقال له صبري الأحدب متوسلاً.

ـ أمان... أنا في عرضك أرجو أن لا يعلم أحداً بذلك فلولا قراءة (كوزوم) لنشرة الأخبار هذه الليلة لكنت قد انتهيت.

بعد ذلك سحب صبري الأحدب القماش الأحمر الذي يغطي الرَّف الذي عليه المذياع فخرجت من خلفه ابنته.

فبدأ بتقريعها قائلاً.

ـ ولك... ماذا فعلت ألا تخجلين!... ولك هل يمكن لحكومة طويلة وعريضة أن تأتي على ذكر سرقة فأس درسن آغا في نشرة أخبارها ولك يا مجنونة ما كل ما يقال في البيت يمكن إذاعته. هل قلت لك تحدثي عن سرقة الفأس والسارق كمال. يا خنزيرة هل كان ذلك مقرراً في برنامج الأخبار الذي كتبناه.

فتحت عيونها كالعفريت وأجابت أبوها.

ـ ماذا كنت تريدني أن أفعل. لقد أنهيت قراءة الأخبار. وأنت لم تدور مفتاح المذياع لتسكته. فاضطررت أنا لتلفيق بعض الأخبار فتذكرت قصة السارق كمال وأذعتها.

بعد هذه الحادثة مباشرة وجد درسن آغا فأسه المسروقة، وكانت ملقاة أمام منزله. والسارق كمال قد اختفى. أما الأهم من ذلك فقد قلَّ رواد المقاهي الأخرى. وبدأ مقهى صبري الأحدب يزدحم أكثر من ذي قبل.

كان الجميع وفي كل مكان يتحدثون عن مذياع صبري الأحدب ويقولون:

ـ لا يوجد أفضل من مذياع صبري الأحدب. فهو يذيع أخباراً دقيقة وصحيحة... يا أخي مذياع صبري الأحدب من نوع آخر فهو لا يشبه باقي الأجهزة أبداً. حتى أن صوته عالٍ جداً. فبإمكانك الاستماع إلى مذياعه وأنت على فراشك.

○ ○ ○

المتر المناسب

كان الوضع متوتراً جداً بين رئيسي العصابة الشقيين حميدو وسعدو لأنهما لم يتمكنا من التفاهم على مناطق النفوذ الجبلية لكل منهما. ولم يكن عدم التفاهم ناجماً عن قلة الجبال أو عدم كفايتها. فالجبال في بلادنا كثيرة ويستطيع الخارجون على القانون أن الالتجاء إليها والعيش بمنتهى الراحة. ولكن سبب الاختلاف هو على المواقع الاستراتيجية لتلك الجبال. فرؤساء العصابات يُفَضِّلون الجبال التي لا يمكن لرجال الدرك الوصول إليها بسهولة. والتي تحوي أماكن مناسبة لقطع الطرق. كالمغارات والملاجئ. ويجب أيضاً أن تكون هذه الجبال في المناطق التي ترعوعوا فيها لكي يكونوا على دراية في كل شبر فيها... مسالكها... دروبها... وكل ما عليهم أن يعرفوه عن هذه الجبال. قبل أن يتخذونها ملاذاً لهم.

كانت عصابة سعدو هي التي تمركزت في الجبل بادئ ذي بدء فبدأ سعدو العمل بمفرده ثم انضم إليه فيما بعد رجلان آخران.

ولما كان الوسط والشروط تساعدان على إنتاج قطّاع الطرق فقد أصبحت عصابة سعدو مؤلفة من أحد عشر رجلاً. كان عمل العصابة جيداً وكان الجبل الذي تأوي العصابة إليه شامخاً يحوي مغارات ومخابئ كثيرة لا يمكن لرجال الدرك الوصول إلهيا، إضافة إلى ذلك فهو قريب من قريته. كان يوجد في السفح الآخر من الجبل غابة. وهذه الغابة تؤمن مجالاً واسعاً لكي يختبئ فيها قطاع الطرق. بالمختصرْ فقد كان المكان نموذجياً لقطاع الطرق وكأنه صمم خصيصاً لهم لدرجة أن أولئك الذين

لا يفكرون بأن يكونوا قطاع طرق. سيشعرون برغبة في أن يكونوا كذلك بعد مشاهدة هذا الجبل.

تداخلت أعمال قَطْعْ الطرق بعد أن صعد حميدو وثمانية من رجاله إلى نفس الجبل. صحيح أن الجبل كبير ولكن لا يمكن لعصابتين أن تعملا معاً في جبل واحد. ولأنهما لم يتقاسما مناطق النفوذ في هذا الجبل فقد ترك رجال سعدو وحميدو أعمال السلب والنهب وقطع الطرق ووقعوا في جدال وعراك كاد أن يودي بينهما إلى استعمال الأسلحة. كان سعدو أكثر تجربة من صديقه القديم وابن قريته حميدو فأرسل له خبراً مفاده «تفضل لنتفاهم ونتفق» ولكي لا يكون حميدو أقل من سعدو مكانة قال للشخص الذي أتاه بالخبر الجواب التالي: «ليأت هو فأنا لا أذهب إليه».

مَنْ يذهب إلى مكان مَن؟ نشب خلاف كبير وجديد بين رئيسي العصابة وبعد مدة من المهاترات أرسل سعدو إلى حميدو هذا الخبر: «ما دمنا لم نتفق فلنسأل الشيخ صالح وأنا أقبل بكل ما يقوله».

لم يستطع حميدو أن يرفض الذهاب إلى الشيخ صالح فذهب رئيسا العصابة إلى الشيخ صالح وسألاه على من يتوجب الذهاب أولاً إلى مكان الثاني.

بعد أن سَرَحَ الشيخ صالح وغَرِق بالتفكير لمدة قصيرة قال:

ـ الصحيح أن يذهب صغير السن إلى الأكبر سناً.

كان سعدو هو الأصغر سناً.

ـ صحيح ما تقوله يا شيخي لكن عصابتي مؤلفة من أحد عشر رجلاً وعصابته ثمانية رجال. معنى ذلك أن عصابتي أكبر فهل تجد من المناسب

أن أذهب أنا إليه.

قال الشيخ صالح

ـ ها ها... لقد اختلف الموضوع. ليذهب الأقل رجالاً إلى الأكثر رجالاً.

تداخلت الأمور وبدا للجميع أن الاتفاق غير ممكن عندئذ أضاف الشيخ صالح قائلاً:

ـ سِرْ أنت من بداية الطريق وأنت سَرْ من بداية الطريق الأخرى حتى تتلاقيا في منتصف الطريق... وهكذا يكون كل منكم قد تجنب الذهاب حتى أقدام الطرف الآخر.

عملا بمشورة الشيخ صالح كان في طرف الطريق سعدو وفي الطرف الآخر من الطريق حميدو وكانا يسيران ببطء شديد لكي لا يذهب أحدهما إلى قدم الآخر، لذلك فقد تأخرا ربع ساعة حتى قطعا منتصف طريق طوله خمسمائة متر. وبعد أن تقابلا في منتصف الطريق مَدَّ كل منهما يده لمصافحة الآخر. وأشعل كل منهم سيكارة للآخر. وكان القرار الذي اتخذه رئيسا العصابة على الشكل التالي:

«اتفقت عصابتا سعدو وحميدو على أن تقوما بأعمال الهجوم وقطع الطرق والسرقة مع بعضهما وأن تتقاسما بالتساوي جميع الأموال والغنائم».

كان هذا اتفاق شراكة ولكن ماذا عن العصابتين هل ستعيش كل منهما بمفردها.

في صبيحة اليوم التالي نصب رجال العصابتين كميناً عند سفح الجبل بالقرب من الطريق الذي يمر في قعر الوادي، بعد قليل بدأ الغبار يتصاعد

من الطريق وتبين لهما أن هناك شاحنة آتية من بعيد. كانت الشاحنة ضخمة ومليئة بالبضاعة.

فتحوا النار على عجلات الشاحنة فأوقفوها. كان الرجل الذي يجلس بجانب السائق هو صاحب البضاعة.

فقالوا له

- المال... أين المال.

قام الرجال بتفتيشهم فلم يعثروا سوى على خمسين ليرة أخذوها من السائق أما صاحب البضاعة فلم يكن في جيبه سوى عشر ليرات وبضعة قروش.

قال الرجل وهو يتوسل:

- أرجوكم خذوا كل أموالي ولكن لا تقتلوني.

- ولك أين المال... أخرج المال أولاً.

- مالي كله اشتريت به هذه البضاعة.

كان هذا التاجر قد اشترى أقمشة مختلفة بمبلغ ثلاثمائة ألف ليرة وحملها على الشاحنة.

أخذوا السائق والتاجر وربطوهما إلى جذع شجرة. ثم بدأوا بتفريغ حمولة الشاحنة. هذه الأثواب من الأقمشة كيف سيتقاسمونها فلو كانت دراهم لهانت قسمتها، عشر ليرات لكم، عشر ليرات لنا... مائة ليرة لكم... مائة ليرة لنا... أما قسمة القماش فليست كذلك فهم لا يستطيعون أن يقولوا هذا ثوب قماش لك. وهذا ثوب قماش لي لأن الأقمشة مختلفة فمنها الغالي ومنها الرخيص وعندئذ سيكون هناك عدم

إنصاف في تلك القسمة.

قلبوا الشاحنة إلى الوادي واختبأوا بعد أن حملوا أثواب الأقمشة إلى الغابة.

قال حميدو:

ـ اسألوا الشيخ صالح عن الطريقة التي يجب أن نتقاسم بها هذه الأقمشة أرسل كل رئيس عصابة رجلاً من قبله وذهب الرجلان إلى الشيخ صالح وسألاه. قطع الشيخ صالح قضيباً مستقيماً من الشجرة وأعطاه للرجلين وقال لهما:

ـ قيسوا القماش بواسطة هذا القضيب وقسموه بينكم.

أخذا الرجلان القضيب المستقيم وذهبا. اصطف أفراد العصابتين بجانب بعضهم أما سعدو وحميدو فقد جلسا في ظل صخرة وكانا يدخنان السكائر. تناول أفضل من يفهم في القياس من أفراد العصابتين القضيب المستقيم وبدأ يقيس... ويَقْطَعْ. كان كلما قَطَع قطعة يعطيها إلى أحد الواقفين أمامه حسب دوره قائلاً:

ـ خذ هذه لك... متر واحد.

يعيش ويقطع.

ـ وهذه لك أيضاً... متر واحد.

كان كل واحد من أفراد العصابة يضع قطع القماش التي يأخذها على الأرض وفوق بعضها. وكان التاجر المربوط إلى الشجرة ينظر إلى ما يجري حوله باستغراب شديد.

كان حميدو قد داخله شعور بأن أفراد عصابته يتعرَّضون إلى غبن.

ولكنه لم يكن يُدْرك ما هو هذا الغبن نظر ملياً ولم يعد يستطيع الاحتمال فصاح قائلاً:

ـ هناك غُبنْ في الموضوع.

فأجابه سعدو

ـ ليس هناك أي غبن في الموضوع. فإذا كنت ترى أن حصتك من القماش قليلة. فذلك مرَدُّه إلى أن عددكم ثمانية لذلك فأنتم تأخذون ثمانية حصص. أما نحن فعددنا أحد عشر لذلك يجب أن نأخذ إحدى عشرة حصة.

ـ واي هذه سرقة.

لم يحتمل حميدو رأي سعدو فسحب سلاحه وأرداه قتيلاً وصاح في الرجال الذين يقيسون القماش ويوزعونه قائلاً:

ـ اقتسموا بالعدل!

عاوَدوا القياس بنفس القضيب. وكانوا قد قطعوا خمسة أثواب من القماش. ووزعوها فيما بينهم. ولما جاء دور الثوب السادس صاح أحد رجال سعدو وكان قد شعر بأن هناك غبناً في تلك القسمة وقال:

ـ إنها قسمة غير عادلة... فهذا المتر قياسه صغير.

فقال له حميدو.

ـ قياسه تمام وليس صغيراً.

ـ أبداً إنه صغير.

ـ وقبل أن يتفوَّه حميدو بكلمة تمام مرة أخرى كان الرجل قد أفرغ رصاصات مسدسه في جبهة حميدو. كان كل من يشهر سلاحه يقتل الرجل الذي أمامه.

صاح أحدهم قائلاً:

ـ يا هو... إننا نهدر دماءنا وإذا بقيتم على هذه الحال فسنفنى جميعاً.

أقسم من بقي من الرجال اليمين بأن لا يشهر أحدهم السلاح في وجه الآخر. وعادوا إلى اقتسام الأقمشة.

ـ هناك سرقة.

ـ أين السرقة.

ـ هذا المتر كبير... لذلك فأنتم تأخذون قماشاً أكثر.

ـ إنه صحيح... ليس كبيراً.

ـ كلا إنه كبير

كانوا قد أقسموا يميناً بأن لا يشهروا السلاح. فلم يشهروا سلاحهم ولكنهم دخلوا في عراك بالعصي والحجارة والضرب واللكم. وبعد أن سقط بعض القتلى من كلا الطرفين. صاح أحدهم:

ـ توقفوا... يا هو. سنقضي على بعضنا البعض. هذا الأمر حله سهل جداً.

ـ كيف.

دعونا نسأل التاجر صاحب القماش فهو أدرى من الجميع وهو يعرف إذا كان هذا المتر كبيراً أم صغيراً.

أخذوا المتر وذهبوا إلى التاجر الذي كان لا يزال موثوقاً بالشجرة وسألوه:

ـ هذا المتر صغير أم كبير؟

كان جميع أفراد العصابة يتكلمون اللغة الكردية ويجهلون اللغة التركية. فأعطاهم التاجر هذا الجواب باللغة الكردية.

«بعد أن أصبح السوق هنا. فهذا المتر مناسب لكم. وهو ليس بالكبير ولا بالصغير».

نظر من تبقى من الرجال حياً بعد سماع كلام هذا التاجر إلى رفاقهم القتلى وقالوا بحزن شديد.

ـ واه واه. لقد ذهب دم رفاقنا هدراً فالمتر مناسب لسوقنا.

○ ○ ○

حذاء السيدة

كان المعاون ينادي بأعلى صوته فيما كانت الحافلة تدور حول مكتب قطع التذاكر قائلاً:

ـ ركّاب استانبول... ركّاب استانبول... حافلة الساعة الخامسة ستتحرك إلى استانبول.

كان الجو شديد الحرارة. وكأن أبواب جهنم قد فُتحت وبدأت تخرج منها ألسنة اللهب. كانت الرياح حارة جداً وإزدادت حرارتها إلى درجة لا تطاق.

بدأ الركاب بالصعود إلى الحافلة وأخذ كل واحد مكانه. وكان يجلس بجانب النافذة وفي أحدى المقاعد الأمامية رجلٌ رث الثياب حافي القدمين. قدماه متشققتان يرتدي بنطالاً ممزقاً ومرقعاً وكان يشبه أحد القرويين الذين تركوا قريتهم وعانوا كثيراً في إحدى المدن الكبرى. وكانت تصدر عنه رائحة حموضة وروائح كريهة. جلس بجانبه... شاب فأخرج منديله الأبيض ووضعه على أنفه كي لا يشمَّ رائحة العرق والقذارة التي تصدر عن جاره.

بعد أن أخذ السائق مكانه وأدار محرك السيارة سأل قاطع التذاكر.

ـ هل كل شيء تمام؟

نظر قاطع التذاكر إلى الخلف فرأى مقعداً خالياً فصاح

ـ رقم ثمانية وعشرون! الراكب ذو الرقم ثمانية وعشرين.

كانت الساعة قد جاوزت الخامسة، فبدأ الركاب يتهامسون على

الراكب المتأخر أما قاطع التذاكر فكان لا يتوقف عن الصياح.

أخيراً جاء الراكب صاحب المقعد الشاغر. كانت سيدة بدينة ترتدي أحلى الثياب ويبدو أنها لم تترك شيئاً من أدوات الزينة إلا واستعملته الأحمر والأخضر والأزرق. وكان واضحاً من شكل هذه السيدة أنها كانت جميلة قبل ثلاثين عاماً.

دخلت المرأة البدينة الحافلة بِدَلَعْ. ولدى دخولها الحافلة انبعثت منها رائحة تسبب الإغماء ليس لأنها كريهة. فالرائحة كانت جميلة جداً ولكنها استعملتها بشكل مفرط وبسبب هذا الجو الحار كانت الرائحة تلتصق في حلق وأنف كل من اشتمها.

كان السائق ينتظر جلوس السيدة في مكانها حتى ينطلق في رحلته. عندها قال لها المعاون.

ـ اجلسي مكانك أيتها السيدة.

لم تُعِر السيدة أي انتباه لكلام المعاون وقالت له بسخرية:

ـ لا يمكن أن أجلس في المؤخرة ألا يوجد مكان في مقدمة الحافلة.

كان الجميع صامتين. فبدأت السيدة البدينة ذات الروائح الفواحة تسير باتجاه المقدمة وهي تنظر في وجوه جميع الركاب وكأنها تقوم بعملية تفتيش. فلفت نظرها ذلك الراكب الرَّثْ الثياب الذي كان يجلس بقرب النافذة فقالت باستخفاف.

ـ أنت. انهض من هنا.

التفت هذا الرجل المسكين يمينه وخلفه علَّه يجد أحداً يشد أزره ويقف بجانبه كي لا يترك مقعده للسيدة البدينة. وعندما رأى أن لا أحد يكترث به. وهو لا يستطيع أن يرفض طلب السيدة التي كلمته باستعلاء شديد،

بدأ الرجل المسكين بالحركة ليخلي مكانه... كان أول من سيستفيد من تَرك هذا المكان هو الشاب الذي يجلس بجانبه لأنه سيتخلص من روائح الحموضة والعرق.

وفيما كان الرجل ذو الثياب البالية ينهض من مكانه قالت له وهي تنهره.

ـ يا لله تحرك بسرعة... لا تتلكأ... ألا تعلم أنني أنتظرك وأنا واقفة.

عند ذلك ضغط الشاب الذي يجلس بجانبه على ركبته وأجلسه في مكانه وقصده من ذلك «أن هذا المقعد هو لك لا تتخلي عنه لأحد».

صاحت السيدة مرة أخرى:

ـ انهض بسرعة.

كانت المرأة تتكلم بشكل استفزازي مع الرجل.

ـ أما زلت جالساً... اذهب بسرعة إلى المقعد الخلفي!

قال الرجل المسكين بصوت خائف:

ـ هذا مكاني.

ـ انظروا إليه... يقول إنه مكانه...

ـ لماذا أترك مكاني؟

التفتت المرأة البدينة إلى الركاب الموجودين في الحافلة لكي يساعدوها وهي ترى أنها على حق. وقالت:

ـ هل سمعتم ما يقول. حتى أنه لا يخجل مما يقوله... ولا يعرف حدَّه... قم انهض بسرعة. هذا ليس مكانك.

ـ إنه مكاني.

كان الرجل المسكين يزداد جرأة كلما ضغط الشاب الذي يجلس قربه على ركبته لكي لا يترك مكانه لكن صوت السيدة كان يعلو باستمرار.

ـ لم يعد هناك أي احترام للناس... كم أنت قليل التربية كم هو جميل أن أجلس أنا في مؤخرة الحافلة... وأن تجلس أنت هنا بجانب النافذة منشرحاً ومسروراً!

لم يعد الرجل ذو الثياب البالية يأبه لما تقوله السيدة.

ـ لقد تغيرت مفاهيم البلد وأصبحت الرِجْلُ مكان الرأس... وأصبح كل واحد لا يعرف حدَّه... أقول لك تحرك. ولا تدع الناس تنتظر.

تضايق ركاب الحافلة كثيراً من تلك السيدة. وبدأوا يهزون رؤوسهم مستغربين تصرفاتها وكانت تصدر عنهم بعض همسات الاستنكار ولكن لم يتدخل أحد منهم في الموضوع. أما لسان حالهم فكان يقول:

ـ ما هذا الذي نعانيه من تلك السيدة الواقفة؟ لم يبق لها إلا أن تأتي وتجلس فوق رؤوسنا.

ازدادت حدة صوت تلك السيدة البدينة.

ـ انهض بسرعة. مثلك لا يليق به أن يجلس في المقدمة.

كانت المرأة البدينة تتكلم وهي واثقة من نفسها. فاعتقد أن ما تقوله صحيح وحاول النهوض من مكانه لكن يد الشاب ضغطت على ركبته فبقي جالساً.

تضايق الشاب كثيراً والتفت إلى المعاون قائلاً:

ـ لتجلس هذه السيدة في مكانها.

بدأ جميع الركاب بالتهجم على السيدة لأنهم كانوا ينتظرون البداية الأولى. شأنهم في ذلك شأن جميع الناس الذين يؤيدون الحق. في كل

زمان وفي كل مكان. اجلس المعاون السيدة البدينة في المقعد المسجل رقمه في بطاقتها وكان في الصف الخلفي فجلست رغماً عنها. تحركت الحافلة ولكن السيدة البدينة لم تتوقف عن الكلام وكان كلامها يثير أعصاب الركاب.

كان بعض الركاب قد خلعوا أحذيتهم من شدة الحر. أو لكي لا تتورم أقدامهم. وما أن حل الليل حتى كان الجميع يَغُطُ في نوم عميق، فكنت لا تسمع سوى أصوات شخير الركاب وضجيج محرك الحافلة.

وصلت الحافلة إلى استانبول في الصباح الباكر فبدأ الركاب بمغادرتها ولكنهم لم يتمكنوا من النزول من الباب الخلفي. لأن السيدة قد سدت الطريق فقد انحنت وكأنها تبحث عن شيء فقدته. نزل جميع الركاب ولم يبق في الحافلة سواها ثم غادرت الحافلة بعد أن بقيت فترة تبحث وتفتش تحت المقاعد. نزلت ولكن بفردة (اسكربين) واحدة لذلك فقد كانت تمشي كأنها عرجاء. بدأ المطر بالهطول.

ولأن السيدة البدينة لم تجد حذاءها بدأت تتشاجر مع المسؤولين عن الحافلة.

ـ يجب أن تجدوه. فهو لن يطير من الحافلة... فتشوا عنه جيداً.

قال لها المعاون باستهزاء:

ـ هل كنت تنتعلين حذاءك عندما ركبت الحافلة.

ـ هل يمكن أن آتي بفردة واحدة. ماذا تقول أنت.

ـ لا تغضبي يا سيدتي. فكل شيء يمكن حله بالتفكير.

ـ لقد تورمت قدماي من الحر وضغطت إحداها على رجلي فخلعتها.

ماذا يهمك أنت... ابحث عنها. وجدها.

اندس الرجل الرث الثياب بجانب الشاب الذي كان يستلم أمتعته وقال له:

ـ سوف لن يجدوا فردة الحذاء في الحافلة ولكن قد يجدها إنسان ما على الطريق.

سأله الرجل الشاب:

ـ لماذا؟

لقد رميتها من النافذة عندما كانت السيدة نائمة.

○ ○ ○

أنت المُذْنِبْ

شيء صعب. أن تُطرد من عملك أو أن تبقى بدون عمل. ولكن الأصعب أن تُفهم أصدقاءك الفضوليين. السبب الذي من أجله طُردت من العمل.. كلا كلا... هذه المرة سوف لن أخبر أحداً بأنني خرجت من العمل. لأنني في كل مرة أطرد فيها أذهب إلى أحد الأصدقاء أشكو له همومي وأشرح له وضعي. فيبدأ ذلك الصديق بالتحقيق معي في أدق التفاصيل لمعرفة السبب الذي من أجله تركت العمل. بعد ذلك يبحثون عن المذنب في ترك العمل. ودوماً أكون أنا المذنب. ويقولون لي لو كنت فعلت كذا ولم تفعل كذا لما استطاع المدير إخراجك من عملك.. لذا «فأنت المذنب والحق عليك».

كنت غارقاً بمثل هذه الأفكار وأنا أسير في الطريق. وإذا بأحدهم يمسكني من ذراعي. ـ نظرت فرأيت السيد عثمان شكري ـ كانت عيناه تلمعان من شدة الفرح. ولكنه كان يتظاهر بالعكس. حاول تقطيب حاجبيه وقال لي:

ـ لقد حزنت كثيراً.

معنى ذلك أنه علم بأنني طردت من العمل. لن أنجو منه أبداً. فسوف يختلق الحقائق. لكي أظهر في النتيجة بأنني المذنب وتسببت بطردي من العمل.

لم يُخف الحزن الذي حاول افتعاله بريق الفرح في عينيه. قلت له وكأنني لم أفهم ما قصد من كلمة لقد حزنت كثيراً.

ـ ماذا جرى. هل حدث لك شيء.

ـ لم يحدث شيء لي ولكنني حزنت لأنك طُردت من العمل.

ولكي أبدّل الحديث. قلت:

ـ هذا لا يهم.

ـ هل يمكن أن يكون غير مهم واه واه.. واه واه.

كان لا يتوقف عن إظهار حزنه وهو يقول واه واه طول الطريق. بعد ذلك قال لي:

ـ دعنا ندخل هذا المقهى. لنتناول فنجانين من القهوة وتشرح لي كيف طردوك من العمل.. قلت له:

ـ لا يوجد لدي ما أشرحه لك.

ـ هل من الممكن أن لا يكون هناك شيء. انظر إلى الحالة التي أنت عليها.

خفف عن نفسك وأفهمني كل ما جرى لك.

ـ ما فائدة الكلام.

ـ هذا عيب. فأنا صديقك وواجبي أن أقف إلى جانب صديقي في مثل هذه الأوقات الصعبة.

ـ شكراً لك.

دخلنا المقهى وفيما نحن نشرب القهوة قال لي:

ـ إ إ كيف حدث.. اشرح لي.

ـ لقد طردني الرجل من العمل.

ـ طيب! ولكن لماذا؟

ـ اذهب إليه واسأله فأنا لا أدري ما هو السبب.

بعد أن توقف عن الكلام بدأ يفكر ثم يفكر ثم عاد وسألني:

ـ هل كنت تذهب متأخراً إلى العمل؟

ـ أبداً.. فأنا دائماً على رأس عملي في الوقت المطلوب.

ـ هل كنت تتلكأ في العمل.

ـ أبداً. فقد كان يقول أنه مرتاح لي.

كأنه يحل الكلمات المتقاطعة فقد كان يفكر قليلاً ثم يسألني:

ـ هل كانت أعماله لا تسير كما يُرام؟

ـ بالعكس أعماله تتحسن يوماً بعد يوم.

وضع يده اليمنى على جبهته وبعد أن غرق في تفكير عميق سألني:

ـ هل كنت تعاكس هذا الرجل؟ ـ هل كنت تُطيعه؟

ـ كنت أحترمه جداً.

غضب لأنه لم يعرف السبب حتى الآن وبدأ يقضم أظافره وبعدها سألني:

ـ هل كنت قد طلبت زيادة على راتبك؟

ـ كلا.

ـ هل اغتبت هذا الرجل؟ ـ هل انتقدته؟

ـ لا يا عزيزي. كيف يخطر على بالك مثل ذلك؟

طالت أسئلته كثيراً.

ـ أكاد أنفجر.. الله الله ما هو السبب الذي يمكن من أجله أن يُخرجك من العمل؟ هاه. هل كنت تنظر إلى هذا الرجل في بعض الأحيان وأنت عابس الوجه كما هي حالتك الآن.

ـ لا أدري.. ربما نظرت.

ـ هاه.. تمام.. كل شيء اتضح.. كنت أقول في نفسي لابد من وجود سبب لكي يُطرد أحدٌ من عمله، ليس لأحد ذنب فيما جرى لك فالذنب ذنبك.. لماذا تنظر بوجه هذا الرجل وأنت متجهم الوجه وكأنك تريد أن تقبض روحه. والله بالله. الذنب ذنبك.

ارتاح كثيراً عندما وجد السبب.

لم أتضايق عندما خرجت من العمل كما تضايقت الآن فودعت صديقي وأنا أهمس قائلاً: إلى اللقاء... واجهت صديقاً في الحافلة التي ركبتها. فبادرني قائلاً:

ـ هل ما سمعناه صحيح؟

ـ صحيح.

ـ وأسفاه.. ولكن لماذا؟

ـ لا أدري.

بعد أن فكر طويلاً.. كالشرطي الذي يتحرى عن شخص ارتكب جريمة قال:

ـ لا أحد يُطرد من عمله بدون سبب. لابد من وجود سبب.

ـ صحيح.

ـ هل انتقدك أحدٌ أمام رب العمل؟

ـ لا أظن.

ـ هل وجدوا مكانك شخصاً أفضل؟

ـ كانوا يقولون أنهم يقدّرون عملي كثيراً.

ـ أو وجدوا شخصاً أقل منك أجراً؟

ـ لا أظن أن أحداً يعمل بأقل من أجري.

ـ لا يمكن.. دماغي تكاد تنفجر... طيب لماذا أخرجك هذا الرجل من العمل.. أخي كيف كنت تتكلم مع هذا الرجل؟

ـ ماذا تقصد؟.. أتكلم معه بشكل عادي جداً.

ـ هاه.. الآن فهمت.

ـ ماذا فهمت؟

ـ لماذا طردك الرجل من العمل.. هل يعقل أن تتحدث مع رب العمل هكذا وبشكل عادي... لابد أنه غضب منك.

ـ دع عنك هكذا التفكير. فأنا لم أكن أرى وجه صاحب العمل سوى مرة في الشهر.. وعندما أراه كنت لا أتكلم كثيراً.

ـ تمام الآن عرفت لماذا طردك الرجل من العمل. لقد غضب منك لأنك لم تكن تتكلم معه. أكيد لقد غضب منك. الحق معه. لا تُلق الذنب على أحد لأنك طُردت من العمل. فالذنب ذنبك..

وهذا أيضاً ارتاح بعد أن وجد المُذنب.

تركت الحافلة ونزلت في أول موقف تقف فيه. كنت متضايقاً جداً وكنت أشعر بحاجة ماسةً إلى صديق أتحدث معه لأنفس عما بداخلي فقصدت أحد أصدقائي القدامى وقبل أن أسلم وأدخل بيته قلت له.

ـ لقد أخرجوني من العمل ولكنني أرجوك أن لا تسلني عن السبب.

لقد ازداد فضول صديقي كثيراً بعد كلامي هذا وقال لي.

- معنى ذلك أن هناك سبباً مهماً لطردك من العمل لدرجة انك لا تريد حتى التحدث عنه.

- دع عنك السبب الآن.

- هل كنت تزور رب العمل في الأعياد؟

لم أذهب إليه أبداً ولكنني أردت أن أغيظ هذا الصديق فقلت له:

- طبعاً طبعاً.. كل عيد. كل عيد رأس سنة.. في كل وقت.. في كل فرصة.

- عندئذ الذنب يقع عليك.. لأنك كنت تذهب إليه كثيراً.

- لا يا عزيزي أنا لا أذهب إليه كثيراً.

بعد أن سألني جميع الأسئلة التي سألها الآخرون عن سبب طردي من العمل قال لي:

- عجباً. هل كنت تضغط على أعصابه؟

- بالعكس فقد كان يرتاح لي.

- طيب.. لماذا إذن؟ أكاد أُجَن.

أنا من يجب أن أُجن. وبدأت أزرع الغرفة جيئة وذهاباً.. عندها صاح صاحبي فجأة:

- حذاؤك يصدر صوتاً أثناء سيرك (كجر. كجر. كجر).

- قلت نعم.

- منذ متى. منذ خمسة شهور أنتعله وحتى الآن لم يذهب صوته.

- هل كنت تنتعل هذا الحذاء في عملك؟

- نعم.

ـ هاه وجدتُها. فهم لا يخرجون أحداً من العمل بدون سبب.

ـ سألته:

ـ لماذا برأيك أخرجوني من عملي؟

ـ من يستطيع أن يتحمل صوت حذائك منذ الصباح حتى المساء

كجر.. كجر.. كجر.. من يتحمله.. رب العمل على حق فالذنب ذنبك يا أخي.

غضبت كثيراً وصرخت في وجه صديقي.

ـ صحيح الذنب ذنبي.. أنا مذنب لأنني أتيت إليك كصديق لأنفس عن همومي في هذا اليوم العصيب.

ضربت الباب وخرجت.

في المساء ركبت الباخرة كي أذهب إلى (قاضي كوي). وكنت قد غرقت في بحر من الأفكار. وإذ بأحدهم يقطع علي تفكيري ويسألني:

ـ ماهذا... لمَ تغرق في بحر من الأفكار؟... هل أصابك مكروه؟

ـ قلت لا.

ـ لو لم يكن هناك سبب لما كنت تبدو مهموماً..هكذا.. اشرح لي. السبب علَّني أُفيدك.

ـ لقد طردني رب العمل.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري.

ـ طيب ماهو ذنبك؟

عددت له جميع الذنوب التي حمَّلني إياها الآخرون.

ـ لأن حذائي يصدر صوت كجر.. كجر.

ـ عزيزي هل يمكن أن يُطرد أحدٌ من عمله لأن حذاءَه يصدر مثل هذا الصوت لابد أن هناك سبباً آخر.

ـ كنت أنظر إليه وأنا عابس الوجه أحياناً.. ولعله غضب لذلك.

ـ ماذا بعد؟

ـ كنت أتكلم معه بشكل عادي.

ـ هذا هُراء.. لا يمكن أن يكون هذا سبباً.

نظرت في وجهه وضحكت فقال لي:

ـ هل كنت تنظر هكذا بسخرية إلى رب العمل وتضحك.

ـ نعم كنت أنظر إليه بسخرية.. لذلك طردني رب العمل.. الذنب ذنبي هل فهمت الآن؟ هل ارتحت.

تركته ومشيت.

ذهبت إلى البيت بعد أن أمضيت يوماً عصيباً.. وبعد أن تناولت طعام العشاء جاءني أحد أصدقائي واسمه إبراهيم وكان يبدو عليه أنه حزين جداً. لأنه طُرد من عمله قبل عشرة أيام.

سألته:

ـ واه.. واه لماذا أخرجوك من العمل؟

ـ فقال لي لا أدري وأنت لماذا أُخرجت من العمل؟

ـ لا أدري.

ـ لابد من وجود سبب.

ـ وأنت أيضاً إذ لا يمكن أن يطردوك من العمل بدون سبب... هل

كنت تنقطع عن العمل في بعض الأيام؟

ـ هل كنت تتمارض. وتأخذ التقارير الطبية. لكي تتهرب من العمل.

بدأ كل واحد منا يحقق مع الآخر وكان إبراهيم يخرج منديله بين الحين والآخر لينظف أنفه كما كان يسعل لينظف بلعومه قلت له:

ـ هل أصابتك نزلة برد يا إبراهيم؟

ـ أنا هكذا دوماً.. فأنا أعاني من نزلة مزمنة.

قفزت فرحاً من مقعدي وفتحت ذراعي وقلت له:

ـ هاه. لقد فهمت الآن لماذا طردوك من العمل. لماذا تبحث عن الذنب لدى غيرك. أنت المذنب.

كان إبراهيم ينظر إلي بدهشة واستغراب وكان يترقب ما أقوله.

ـ أنت لا تتوقف أبداً عن مسح أنفك بالمنديل.. لا يوجد حل أمام رب العمل في هذه الحالة سوى طردك من العمل. أليس كذلك؟

ارتحت كثيراً وفرحت كثيراً وكأنني وجدت عملاً جديداً.

○ ○ ○

عشقٌ مجنون

اتفقنا على أن نلتقي في الساعة الحادية عشرة في (لوبي) فندق هيلتون لكي يصحبني إلى صديق له، لأعمل عنده فأنا عاطل عن العمل منذ عدة شهور ولم يعد لدي دراهم. فأنا لا أتناول أكثر من وجبة طعام واحدة في اليوم.

كان عليّ أن أبدو في مظهر لائق أمام الشخص الذي سأعمل لديه. فأخرجت طقمي الأسود الذي كنت قد اشتريته قبل سبع سنوات. لبست البنطال وبالكاد استطعت إدخاله. أما الجاكيت فقد شعرت بأن أحداً قد كتفني بعد أن ارتديته وكنت أشبه بصقر مقيّد الجناح. ولا أدري هل أن الطقم أصبح ضيقاً أم أن وزني قد زاد. نظرت في المرآة كان يبدو علي أنني رجل غني ولا مجال للشك في ذلك!

دخلت الفندق وبحثت عن صديقي في (اللوبي) فلم أراه. فجلست على أحد المقاعد أنتظر مجيئه. لقد كنت جائعاً فأنا لم آكل سوى قطعتين من الكعك منذ البارحة. ولأن صديقي هذا قريب مني جداً فكنت سأطلب منه أن يطلب لي طعاماً فور مجيئه.

وفيما كان خيالي سارحاً بالأحلام الحلوة وبالعمل الجديد. وإذ بي أسمع صوت حفحفة ثياب. بعدها رأيت بريق شيء اسود. كان ذيل ثوبها الأسود قد لامس رجلي وهي تمر بجانبي. عَبَق الجو كله برائحة الزنبق لدى مرور هذا الشيء الأسود. رفعت رأسي قليلاً ونظرت فرأيت

السيدة التي تلبس فستاناً أسود والتي لامس ذيل ثوبها رجلي عندما مرت بجانبي جلست في المقعد الذي يقابلني ولم يعد يفصلني عنها سوى طاولة صغيرة. لقد وضعت على صدرها زهرة من الزنبق. وكانت رائعة الجمال لها وجه يشبه زهرة (المانوليا) وعينان سوداوان واسعتان تشعّان نوراً وحيوية. وشفتاها كحبتي كرز أحمر. وبحذر شديد نظرت إليها. ثم نظرت إلى الأرض.

لم أفهم لماذا جلست هذه السيدة هنا في الوقت الذي كانت فيه جميع المقاعد خالية. كنت لا أستطيع النظر إليها ولكنني أشعر بنظراتها نحوي.

قالت السيدة ذات الرداء الأسود بعض الكلمات باللغة الإفرنسية ولما عَرِفَتَ أنني لا أفهم الإفرنسية. تكلمت بالإنكليزية وعندما رأتني أنني لا أجيبها تكلمت بالتركية وقالت لي:

ـ هل تسمح لي بالتعرف عليك؟

رغم أن نظرات السيدة كانت موجهة نحوي لكنني دُهشت لهذا السؤال وبدأت أتلفت يميناً وشمالاً. وفي الوقت الذي كنت فيه مندهشاً فأجابتني بقولها:

ـ أرجوك هل تصحبني إلى (الروف).

كانت السيدة تقول هذا الكلام وهي خائفة وكأنها وقعت في مأزق.

ـ نهضت من مكاني وقلت لها بكل ممنونية.

وما أن نهضت السيدة. حتى وقف أمامها رجل طويل القامة أحمر الوجه ذو شعر أجعد. هذا الرجل ضرب قدميه بالأرض بعد أن ضمهما إلى بعض ووقف باحترام كأنه عسكري. ثم أحنى رأسه وقال لها بالإنكليزية:

- هل تأمرني (الليدي) بأي أمر!

فقالت السيدة له:

- كلا يا ماكس. خذ قسطاً من الراحة ودعني لوحدي من فضلك.

ركبنا المصعد إلى السطح وجلسنا بجانب بعض.

كانت السيدة ذات الرداء الأسود تتكلم معي وهي تسترق النظر من بين جفونها الطويلة الاصطناعية إلى البوسفور.

في الوقت الذي لم يكن لدي ما أقوله بعد هذا التعارف المفاجئ سألتني:

- هل يمكن أن أعرف اسمك؟

- حسن... وأنت ما اسمك؟

دنت مني وهمست في أذني وهي خائفة بعد أن تلفتت يميناً وشمالاً وقالت

- أرجو أن تناديني ليدي فقط.

وبعد برهة سادها الصمت أمسكت يدي وضغطت عليها قائلة:

- إنني خائفة.

- سألتها ممن تخافين؟

زادت من ضغطها على يدي وأشارت بعينها.. أدرت رأسي إلى الجهة التي أشارت إليها فوجدت من خلفي وعلى اليمين. رجلاً أصفر الوجه وقد دس يده في جيب بنطاله. وعلى اليسار كان يقف رجل أحمر الوجه والذي قالت له السيدة ستيل ماكس خذ راحتك أنت واتركني لوحدي.

هل رأيتم اللوحات السيريالية التي يقف لها شعر الإنسان. شعرت وكأنني قد وقعت ضمن إحدى هذه اللوحات المخيفة. لكن الأشياء لم تكن جامدة بل كانت تتحرك وأنا أعيش معها.

سألت السيدة بفضول:

ـ عفواً أيتها الليدي هل لي أن أعرف من هؤلاء الرجال؟

قالت وشفاهها ترتجف من الخوف:

ـ إنهم يحافظون عليَّ.. يعني هم جواسيس زوجي.

بعد فترة من الصمت كنت أفكر خلالها فيما يحدث وكيف أنني غرقت في هذه الأحداث. أخرجت السيدة سيكارة فمددت ولاعتي بسرعة، أمسكت اليد التي فيها الولاعة بكلتي يديها وكأنها تدغدني وأشعلت سيكارتها.

كان يتحتم علي طلب مشروب للسيدة ولكن خوفاً من صرف الخمسين ليرة التي كنت لا أملك سواها فلم أكن أنظر إلى النادل أبداً.

قالت:

ـ إنني أخاف كثيراً هنا.

وبعد أن أمسكت بيدي ووضعتها على الطرف الأيسر لصدرها قالت:

ـ انظر ياحسن إلى دقات قلبي.

كادت أنفاسي تنقطع فقلت بصوت منخفض جداً:

ـ لا تخافي أيتها الليدي.

ـ هل ستحميني ياحسن؟

ـ طبعاً.. بدون شك.. وبعد أن تكلمت كثيراً بهذا المعنى جمعت نفسي وأضفت.

ـ صدري حاضر ليدرأ عنك كل المهالك.. ولم أكتف بهذا الكلام بل قلت لها أيضاً:

ـ أرجو أن تثقي أيضاً بأنني سأفديك حتى آخر نقطة من دمي.

دنت مني كثيراً والتصقت بي وكأنها تريد أن تشعرني بحرارة جسمها وقالت لي:

ـ أنت تملك روح فارس، وقد شعرت بأنك رجل منذ أول نظرة. لا يمكن أن يوجد في هذا الزمان رجل فارس مثلك.

كانت الليدي على حق فيما تقوله. فقلت لها بخجل وأنا ابتسم:

ـ أنت تمتدحينني كثيراً. فقالت لي:

ـ أريد أن أتكلم معك فإني أسمعك.

ـ سأعطيك سرَّ حياتي ياحسن. دعنا نذهب إلى جناحي فأنا لا أستطيع أن أتكلم هنا. لأننا نحن الاثنين في خطر.

سحبتني من يدي لكي أقف. ثم سارت وسرت معها.

دخلنا إلى الجناح فاستلقت على (الديوان) وبقيت أنا واقفاً حائراً كيف سأتصرف.

أشارت لي الليدي بيدها وكأنها تنادي طفلاً صغيراً وقالت بصوت موسيقي:

ـ تعال، تعال... تعال إلى جانبي ياحسن.

كل الناس ومنذ أن خُلقت تناديني باسمي حسن.. ولكن لم أشعر بجمال اسمي إلا عندما نادتني هي:

ذهبت إلى جانبها فقالت:

ـ اجلس ياحسن.. اجلس.

جلست.

ـ أنت تفكر بي منذ عدة سنوات أليس كذلك؟

كيف يمكنني أن أقول كلا لمثل هذا السؤال؟ فقلت لها:

ـ نعم أنا أفكر فيك منذ عدة سنوات أيتها الليدي.

ـ كنت دوماً في خيالك طوال هذه السنين أليس كذلك؟

فسألتها بحيرة:

ـ ولكنك كيف عرفت أنك في خيالي طيلة هذه السنوات؟

وبدلاً من أن تجيب على سؤالي. سألتني هي:

ـ ما رأيك أنت؟ كيف عرفت أنا؟

ـ أنت تعرفين كل شيء يا ليدي.

مالت وهمست في أذني.

ـ تكلَّم بصوت منخفض لكي لا يسمعنا أحد.

ـ ألسنا لوحدنا هنا.

أعتقد أن زوجي قد ركّب أجهزة تنصت في جدران الغرف لذا فإن الجواسيس يستطيعون سماع كل ما تقوله.

قلت لها وأنا خائف وكأنني وقعت في شبكة من الجواسيس دون أن أدري.

- لماذا؟

قالت بهمس:

- زوجي... زوجي ظالم جداً... ادنو مني أكثر لكي لا يسمعنا أحد.

دنوت منها حتى لامستُ جسمها الذي كان يشعُّ كالنور والذي كانت تفوح منه الروائح العطرة.

- حسن، سنتفاهم مع بعضنا أليس كذلك؟

- بدون شك يا ليدي.

- أدنو مني أكثر ياحسن.. اقترب أكثر.. التصق بي ياحسن.

التصقت بها كثيراً لدرجة أنني لم أعد أستطيع أن ألتصق أكثر.

- أنت شاب وسيم جداً ياحسن.. هل قالها لك أحدٌ قبلي؟

- كلا أيتها الليدي هذا الكلام أسمعه لأول مرة.

- جمالُك لا تفهمه باقي السيدات.

كنت سعيداً جداً لأنني أدركت أنني قد وجدت السيدة التي تفهمني أخيراً لكنني قلت لها:

- أنا أعرف نفسي ياليدي أنا لست جميلاً.. بل أنا قبيح.

- أنت تملك جمالاً وحشياً.. يعني جمال القُبح.. هل استطعتُ أن أشرح لك ما أعنيه؟

- بالتأكيد.

- حسن إذا نظرت في عينيي فلابد أنت ستفهم.. أحياناً تعجز

الكلمات عن وصف الأحاسيس التي يشعر بها الإنسان وأنا أعيش هذه اللحظات.

وهمهمت بأشياء غير مفهومة وكأنها تتشكرني. ثم قالت:

ـ اصمت ياحسن.. فأنا أرغب في سماع موسيقى همسك ولكنها عادت وقطعت الصمت قائلة:

ـ هل تحبني. لأنني سوف لن أخفي عنك شيئاً. وأشبع كل رغباتك الدفينة، وبعد قليل لن يكون هناك أي شيء مجهول بالنسبة لك. ولكن كل ما أخشاه أن أصبح في نظرك كواحدة من إحدى السيدات اللواتي مررن في حياتك. ويصبح عندئذ كل شيء عادياً بالنسبة لك.. قلت لها:

ـ سأحبك إلى الأبد ياليدي.

ـ من يحب لا يستطيع ضمان استمرار الحب. ولكن الذي يضمن استمرار الحب هو المحبوب. حافظ يا حسن على عشقي لك. حافظ عليه.

ـ حسناً ياليدي.

ـ خذني بين ذراعيك القويتين. أنت ستكون قمري ونجمي وشمسي وكل شيء في حياتي. ولكن آه من جواسيس زوجي.

كان كل شيء يهون أمامها فقلت لها:

بإشارة منك ياليدي أخلّصك من هؤلاء الجواسيس اطلبي الآن حتى أقتلهم.

ـ لا ليس الآن ياحسن.. عندما يحين الوقت.. اخلع سترتك إنها تضايقك.

خلعت الجاكيت.

ـ استلق بجانبي.. كم أنا سعيدة ياحسن.

ـ وأنا كذلك ياليدي.

كنت أفكر في بعض اللحظات كمن يثوب إلى رشده وأقول في نفسي هل يمكن أن تكون مجنونة؟ لا يمكن فلو كانت كذلك لما تكلمت بكل هذا الحديث الصريح.. وأنا عرفت أنها إنسانة ذكية منذ أول اللقاء.

ـ هل تموت من أجلي ياحسن؟

ـ بكل حب وبدون أن يرف لي جفن.

ـ ليس لدينا وقت ياحسن. يجب أن نعاهد بعضنا. لدينا عمل يجب أن ننجزه.

ـ أي عمل ياليدي؟

ـ العشق ياحسن العشق!

لم تكن الليدي على علم بأنني لم أذق على مدى يومين سوى قطعتين من الكعك.

ـ أنا بحاجة شديدة إلى طفل ياحسن.. يجب أن يكون لي طفل. هل تفهمني ياحسن.

ـ اطلبي ما تريدينني أن أفعل؟

ـ طفل.

ـ من؟

ـ أنت.

ـ في أي وقت؟

ـ الآن.

ـ نعم... على رأسي أيتها الليدي.. ولكن ما رأيك أن نتريث قليلاً لنكون مرتاحين وفي ظروف أفضل.

ـ افهمني ياحسن... يجب أن أصبح أماً وإلا طلقني زوجي.

كانت تشرح لي قصة حياتها والدموع تنهمر من عينيها.. فلقد تزوجت أحد الأمريكيين الأغنياء عندما كانت تدرس في أمريكا.. كان الرجل غنياً جداً لدرجة أنه كان يجهل عدد الملايين التي يملكها. ولكنه كان عقيماً وعجوزاً بنفس الوقت. وكان يرغب في أن يكون له ولد يرث من بعده تلك الأموال لذا كلَّف زوجته الليدي بمهمة إنجاب الطفل أو أنه سيطلقها.

ـ لذلك أرسلني زوجي في جولة حول العالم. وأنا أجول العالم منذ ثمانية شهور. وأنا هنا منذ أسبوعين.

ـ لماذا وقع اختيارك عليَّ في الوقت الذي صادفت فيه رجالاً عديدين.

ـ لأنك تتمتع بروح الفارس.. ألم تفهم حتى الآن؟

هذه الصفات التي رأتها الليدي لدي لم يرها أحد غيرها حتى ذلك اليوم.

أدركت الآن سبب خوف الليدي فزوجها المليونير غيور جداً فقد أوصى الرجال اللذين يرافقون الليدي بقتل الرجل الذي سيمنحها الطفل بعد أن ينهي مهمته.. وهكذا يظهر أمام الناس بأنه أب الطفل.

أحسست بالتهلكة ولكي أتخلص من هذا البلاء.

ـ لكنني متزوج.. وزوجتي.

قطعت كلامي قائلة:

ـ يكفي.. افتح حقيبتي وناولني المسدس ذي القبضة العاجية ياحسن.. أنا أعتقد أن المرأة التي يُردُ طلبها من الشخص الذي تحبه.. يجب أن تموت؟

لم يكن أمامي سوى أن ألبي رغبة الليدي وإلا فإنها ستقتل نفسها. فقلت لها:

ـ أنا بخدمتك.

ـ كم أنا سعيدة، كنت واثقة من أنك ستقبل. ولكن لي رجاء عندك. لا تبحث عني بعد أن تخرج من هذا الباب ولا تسأل عن اسمي. حتى ولا تسأل عن الطفل. وعش حياتك بشكل طبيعي.. ولتبقى هذه اللحظات السعيدة سراً فيما بيننا.. هيا ياحسن.

ـ فوراً أيتها الليدي.

ـ طبعاً على الفور.. لأنني سأعود بالطائرة هذا المساء.

ـ وإن كان لديك وقت.

ـ لا وقت لدي.. اذهب إلى الحمام بسرعة واخلع ثيابك.

ذهبت إلى الحمام ولكنني كنت أجهل على أية حال يجب أن أخرج من الحمام. يعني ما هي درجة التعري الذي يجب أن أخرج بها من الحمام.

كانت تناديني من الصالون:

ـ هيا ياحسن.

رأيت من غير المناسب الخروج أمام الليدي بالسروال فقط فلبست

ثياب الحمام وخرجت إلى الصالون.

- في ذلك الوقت بالضبط فتح باب الحمام الذي خرجت منه أنا وخرج ذلك الرجل ذو الوجه الأحمر المرافق لليدي. دُهشت كثيراً لرؤيته فأين كان يختبئ ذلك الرجل، في الحمام وكيف لم أره. ولعله ظن أنني قد قمت بوظيفتي فجاء ليقتلني ولكي أنقذ حياتي قلت له:

- لم يحصل أي شيء بعد... وقبل أن أكمل كلامي. أجابني ذلك المدعو ماكس وباللغة التركية:

- انهض أيها الحقير واخرج من هنا.. وهجم عليَّ.

قالت له السيدة:

- ماذا جرى؟

فقال لها الرجل ذو الوجه الأحمر.

- هذا الرجل الحقير لا يملك سوى خمسين ليرة في جيبه.

ذهبت إلى الحمام ولبست ثيابي وخرجت إلى (الروف) وجلست وبدأت أفكر بما جرى لي. معنى ذلك أن ذلك الرجل ذو الوجه الأحمر كان يختبئ في الحمام. وقام بتفتيش جيوبي بحثاً عن المال بعد أن خرجت من الحمام.

ما الذي جرى لي.. بقيت في مكاني وأنا كالنائم.. وفي المساء وبعد أن أضاءت الأنوار كانت تطاردني تلك الأحداث. لم أحتمل ما جرى لي فكرت في الذهاب إلى شقة الليدي لكي أشتمها علّني أرتاح قليلاً كان أمام باب شقة الليدي بعض الأشخاص وقد علت أصواتهم.. أمعنت النظر وإذا برجل كان يلبس نفس ثياب الحمام التي كنت ألبسها وقد أمسك بياقة رجل آخر وبدأ يجره وهو يصيح:

ـ امش يا قليل الشرف!.. مع زوجتي؟ لقد قبضت عليك بالجرم المشهود.. لقد اقتحمت المكان.. نعم اقتحمته.. مع زوجتي ها..

دنا المدعو ماكس من الرجل الذي يرتدي ثياب الحمام. وقال له:

ـ أيها السيد يجب إنهاء هذا الموضوع بسرعة.. أنتم رجال محترمون فإن طال هذا الموضوع. ستصبحون حديث الجرائد وستسمع زوجاتكم وأطفالكم. لذا فإن التفاهم أفضل شيء.

أصبح وجه الرجل الذي يرتدي ثياب الحمام أبيض كالكلس. وقال:

ـ طبعاً... طبعاً.

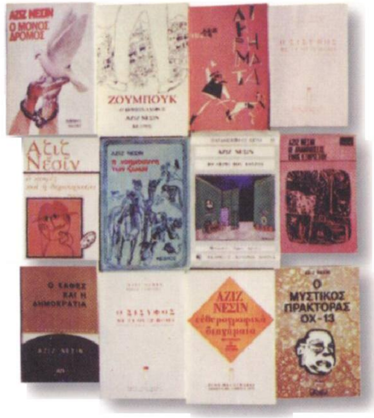
ـ التفاهم أفضل أيها السيد.

ـ وأنا موافق على ذلك.

بدأا بالتفاوض.. وذهبت أنا بعيداً.

○ ○ ○

المحتويات



ماذا يفعل رجل مثلي دون عمل؟ أنا لا أصلح أن أكون مطرباً، أو لاعب كرة قدم، أو كاتباً، لكني نشرت إعلاناً في الصحف بأنني أستاذ لامع في الرياضيات التي كنت أرسب بها دائماً في الصف، ومستعد لإعطاء الدروس الخصوصية.

وجدت نفسي ذات يوم أتحدث في مؤتمر صحفي في بلد أجنبي جمع القنابل الشقراوات، والسمراوات، وملكات جمال الملاهي، وعارضات الأزياء. وعندما سألوني عن أهم الأحداث التي تشغل الشعب في بلدي؛ أجبتهم: صور الممثلات العاريات لنجوم السينما التي تنشرها مجلاتكم.

وتمشياً مع الديمقراطية، تزوجت امرأة عاملة. وبما أن دوام عملها صباحاً ودوام عملي مساءً، فقد أصبحنا نتبادل الحب والغرام من خلال الرسائل.

قصص ناقدة ومعبرة